الموت
ولقاء المجهول

***

تأليف الدكتور

سيف الإسلام حسين عبد الباري

***

مراجعة وتصحيح وتعليق

الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد

***

إشراف

الشيخ الدكتور أسامة حامد مصيلحي

اسم الكتاب:

الموت ولقاء المجهول

المؤلف:

الدكتور سيف الإسلام حسين عبد الباري

مراجعة وتصحيح وتعليق:

الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد

إشراف:

الشيخ الدكتور أسامة حامد مصيلحي

تصميم الغلاف: مصعب علي

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة "للمؤلف" للنشر والتوزيع وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكتروني أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو دون أخذ موافقة كتابية مُسبقة من المؤلف.

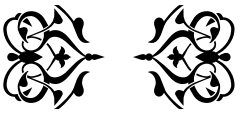

حقوق الطبع محفوظة

* * *

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٦ / ٧٥٠

* * *

الترقيم الدولى

I S B N ٨٧٧٥٢٥٦٦-٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالُوا رَبَّنَا
أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ
وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ
فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ
إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ
[غافر : ١١]

شكر وتقدير

الحمد لله عظيم الفضل والمنة، على ما أنعم به على أهل شريعته، وعلى سائر خلقه أجمعين، ونسجد له شكرا ـ تبارك وتعالى ـ أن أعان على إتمام هذا الكتيب، والذي كان ــ على الرغم من صغر حجمه ـ من الصعوبة بمكان كبير، نظرا لما يتناوله من أمور غيبية، لها حِمى وحرمة، لا يجتريء عليها أهل طاعته، ولكن يتلمسون منها جوانب العظة والاعتبار، وعسى أن نكون منهم، ولهذا كان السير في إنجاز هذا العمل على أناة وحذر، طمعا في طاعة الله تعالى كما يحب سبحانه ويرضى، ومهابة الانزلاق إلى ما لا تحمد عقباه في شرع الله، عافانا الله جميعا من مثل ذلك .

ولقد قيض الله عز وجل لي من أعانني على الخوض في غيابات هذا المجهول المهول، وأنا آمن مطمئن أن معي من يستوقفني وينبهني لأي خلل قد أنزلق إليه، وكل هذا بعد التوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن ييسر لنا الخير ويجنبنا الخطأ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

وامتثالا وطاعة لقول نبينا ﷺ حيث قَالَ: "لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ"[1] أتقدم بخالص شكري وتقديري وعرفاني وامتناني لأخي الموقر **الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد** والذي لم يأل جهدا ولم يدخر وسعا في مراجعة وضبط وتصحيح هذا الكتيب سواء من الناحية اللغوية، أو من الناحية الشرعية، بل وكان ــ بارك الله فيه ــ غيورا على أن يخرج في

(1) سنن أبي داود، وقال: الألباني: صحيح.

أحسن صورة، إلى الدرجة التي جعلته يراجعني في كثير من النقاط مرات عدة، حتى ينضبط المعنى وتتضح الفكرة.

ولو كان المشرفون على الرسائل العلمية ينهجون هذا النهج لتغيرت صورة الرسائل العلمية في جامعاتنا تغيرا كليا، ولارتقت بها الأمة وعلا شأنها علوا كبيرا.

وكل هذا الجهد الذي بذله وقام به، قد يكون هو الجزء الأقل لو قورن بهذه الموهبة الفذة التي حباه الله بها، والمتمثلة في القدرة الهائلة على القراءة والاستيعاب بسرعة يحسد عليها، أسأل الله عز وجل أن ينفعه بها دوما، ويجعلها في ميزان حسناته، وكذلك هذه النظرة الثاقبة، التي يغوص بها في ثنايا القلب والنفس، ليستخرج منها أجمل ما فيها، كالغواص الذي يستخرج من أعماق البحر الدر والياقوت.

وقد كان ما يدور بيننا من حوار علمي، سببا في استكمال جوانب نقص أو استدلال بأدلة أكثر وضوحا وبيانا، مما سبق لي ذكره، في كثير من مواطن هذا البحث.

وهكذا كل فكرة ــ تدور في الذهن ــ لا تنمو وتتبلور إلا إذا طعمت وارتوت بالحوار والنقاش، والذي أصبح في هذا الزمان عزيز المنال، نادر الوجود، وكأنه خرافة من الخرافات، التي تتحدث عنها الأساطير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كما أخص أخي الفاضل المكرم **الشيخ الدكتور أسامة حامد مصيلحي** والذي أفرد لطلاب العلم الجانب الأكبر من وقته وجهده وعطائه، حتى

أصبح بيته قبلة لكل من رام الارتواء من عذب هذا العلم الشرعي الجليل، والتحلي برداء من نوره.

وكان من نعم الله تعالى ــ التي لا تحصى ــ أن يسر لي ــ على يدي هذا العالم الجليل ــ الكتابة في مجال الغيبيات والعقائد، وكنت قبل ذلك أكاد أقتصر على مجال الفقه والأصول، إلا في القليل النادر.

ولأنه ــ حفظه الله ــ من الذين حملوا على عاتقهم لواء الدعوة إلى الله تعالى، وتيسير علوم الشريعة المختلفة لطلابها، فقد كان لقاؤنا سياحة في بستان الشريعة، نقتطف من ثمرات علومها ما ييسر الله لنا، ولا يكاد اللقاء ينتهي إلا والرغبة في حوار وسجال آخر تتجدد، واللهفة إلى نعيم العلم يزداد، فجزاه الله عني كل خير وأجزل له المثوبة والعطاء، على كل ما قدم وأعطى، رفعة لشأن هذا الدين وتعظيما لقدر شريعته.

المؤلف

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسولنا محمد ﷺ خير خلق الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد..

فالمتأمل في واقعنا وحال أمتنا الإسلامية ـ أمة اقرأ ـ يجد التخلف والجهل ضاربا في كل أنحائها ومجالاتها، وقد مهد لذلك عاطفة جانحة متمردة عصية على الخضوع لأمر الله على مستوى الفرد والأمة، فبعد أن جاءنا هذا الدين الحنيف ليضيف لنا بعدا جديدا في العقيدة، وهو أن الحياة دنيا وآخرة، وأن الآخرة خير وأبقى، إذا بالوعاظ أو الكثير منهم ـ طمعا منهم في انتشال الناس من الغرق فى خضم الدنيا وتذكيرهم بالآخرة ـ راحوا يصورون الموت تصويرا وكأنه نهاية المطاف والفراق الأبدي"[1]، وبذلك انكفأ المفهوم العقدي الذى جاء به الإسلام ليخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فها هو بلال رضي الله عنه في مرض موته يقول: غدا ألقى الأحبة

(1) فالموت قطع لوشائج وصلات المحبة والألفة والود بين الأهل والأصدقاء، في الحياة الدنيا، طوبى لمن حسنت آخرته فتحققت له كل أمانيه من لقاء الصحب والأهل والأحبة، في دار الخلود التي لا يعكر صفوها شيء أبدا.

محمدا وصحبه، بينما نجد الفزع من الموت يتملك قلوب الناس، وكأنه فناء، ونهاية ليس بعدها حياة.

إن الإحساس بالعطش دليل على وجود الماء، وكذلك غريزة حب البقاء، والخلود في النفس البشرية دليل على وجود حياة بعد هذه الحياة ..

ولم تكن جلسات نبينا الأعظم ﷺ في دار الأرقم رضي الله عنه في المرحلة المكية"[1] متوقفة على الحدود النظرية لتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، بل تعدى ذلك إلى تعميق العقيدة والتوحيد، وشرح تفاصيلها، والإجابة الشافية لصدورهم عن كل ما يتعلق بالأمور الغيبية، وكأنهم يرونها رأي العين، وهذا ما صنع جيلا قرآنيا فريدا.

وهذا البحث الذى بين أيدينا، والذي شرفت بمراجعته، يقدمه لنا باحث أصولي فقيه، متخصص في علوم الشريعة، يعود بالدين في قضية الموت إلى

---

(١) «كان المشركون يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل والبقر، ثم يلقونه في حر الرمضاء، ويلبسون بعضا آخر درعا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة، وقائمة المعذبين في الله طويلة ومؤلمة جدا، فما من أحد علموا بإسلامه إلا تصدوا له وآذوه، فكان من الحكمة تلقاء هذه الإضطهادات أن يمنع رسول الله ﷺ المسلمين عن إعلان إسلامهم قولا أو فعلا، وألايجتمع بهم إلا سرا، لأنه إذا اجتمع بهم علنا فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تزكية المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمة، فكان يجتمع مع المسلمين سرا، في دار الأرقم، وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي على الصفا، وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم، فكان أن اتخذها مركزا لدعوته، ولاجتماعه بالمسلمين من السنة الخامسة من النبوة»، الرحيق المختوم (ص: ٨٠).

سيرته الأولى، ويفتح بالموت بابا إلى الحياة الأبدية، والتى تنعكس مباشرة بانفتاح على حياتنا الدنيا.

وجدير بالذكر أن مما يميز الباحث وبحثه أنه استفرغ الوسع، في استخدام طاقته العقليه والاستشرافية لأبعد الحدود، لاستكناه المجهول (الموت الذى لن يفلت منه أحد)، مع التزامه الصارم بأحكام الشرع، وهو بهذا قد غاير ما تفشى بين أدعياء العلم، الذين ملأوا الساحة ضجيجا، وبدل أن يعكفوا ويغوصوا في أعماق كتب التراث، ليستخرجوا دررها، إذا هم يؤثرون الدنية والسطحية، لينقلوا للناس قشورا وهمية، ويزينون لهم الخروج من الشريعة باسم اختلاف الفقهاء، وآخرين انكشف زيفهم وعدم قدرتهم على البحث العلمي في بطون أمهات الكتب والمراجع .

ولم يمنع حب باحثنا ــ مؤلف الكتاب ــ لعلماء الأمة الثقات، الذين حفظوا الشريعة بعلومهم، أن يرتق الفتق ويسد الهوة، التى حدثت بيننا وبينهم، على مدى قرون، فلم يأل جهدا وببراعة عقلية نادرة، فتح الله له بابا، ما كان ليفتح إلا ببذل أقصى الجهد، لنصرة الدين وبيان الحق للعالمين.

ولقد رأيته في هذا البحث يصول ويجول مع عقله ونفسه، ومع كتب التراث واللغة، والمفاهيم السائدة والتقنيات الحديثة وعلوم العصر، ومع ما تعارف عليه الناس وتربينا عليه، ورأيته وهو يحقق انتصارات متتالية في كل هذه المعارك بفضل الله وحده.

فأسأل الله العلي القدير أن ينفع بهذا العلم وأن يصل إلى قلوب الناس وأن يكون فاتحة خير وأن يكون ذخرا لنا يوم الدين ...آمين.

تحريرا في يوم الجمعة الثالث من صفر عام ١٤٤٠ هـــ.

الموافق ١٢ أكتوبر علم ٢٠١٨م.

دكتور السيد مصطفى السيد.

***

التمهيد

تحدثت نصوص كثيرة ــ من القرآن والسنة ــ عن الغيب الذي يلقاه الإنسان بعد الموت، ولكن كما هو الحال، في كل ما جاء به الوحي، فإن النصوص لا تنقل صورة مجسمة، أو رسما له إطار وحدود، بل إن اللفظ يحمل العديد من المعاني، والتراكيب اللغوية تجعل القطع بوجه واحد من وجوه المعاني يكاد يكون مستحيلا، إلا فيما أريد منه القطع كما في بعض آيات الأحكام، وهي في نصوص الشرع محدودة وقليلة جدا.

ومع كل هذا الإبهام لا نجد أن رسول الله ﷺ قد تعرض لهذه النصوص بالتفسير والبيان، على الوجه الذي يقطع الشك ويزيل الاختلاف، بل إن غالب ما نقل من التفاسير كان يعتمد على اجتهادات الصحابة ﷺ وبما تعلموه من رسول الله ﷺ فهما وليس نصا.

والذي نخرج به من هذا: أن الإيهام والإجمال في اللفظ الشرعي، والقرآني خاصة، كان مقصودا من الشارع ﷻ، والسبب في ذلك أن العقول لا تستطيع أن تستوعب وتفهم إلا ما هو في مقدورها، وكل ما زاد عن ذلك سيكون فهمه على غير وجهه الصحيح، وسيقع في غير محله وموضعه، ولن يُحمل على معناه الحقيقي أبدا، نظرا لعجز العقول عن إدراك ما ليس في طاقتها وإدراكها، تماما كالحقائق العلمية التي يتوصل إليها الإنسان، والتي لم تكن تخطر على البال قبل ذلك، وجاءت بها ألفاظ القرآن الكريم"[1].

(1) كما في قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} [سورة الواقعة: الآيتان ٧٥، ٧٦]

ويمكن أن نرتب على هذا المعنى أن اللفظ الذي خاطبنا به الخالق سبحانه، سواء أكان من القرآن، أم كان من السنة أريد به أن تنطلق أمة الإسلام إلى آفاق البحث والتفكر، دون أي قيد يحد من حركتها، ما دام القصد هو تحقيق مفهوم العبودية الحق لله رب العالمين.

وما أحسن قوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}[1]، ففي هذه الآية يرينا الخالق ــ جل في علاه ــ كيف تتفاوت العقول في الفهم، وتختلف النتائج التي تصل إليها، ومع هذا فالكل مأجور كما يشير إليه قوله: "وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا"، والذي يدل على عدم الذم أو التأثيم، بل أثبت سبحانه العلم لسيدنا داود عليه السلام مع أن حكمه لم يكن هو الحكم المرضي عند الله، بل كان حكم سيدنا سليمان عليه السلام هو الحكم الذي ارتضاه سبحانه، كما يفهم من قوله ﷻ "فَفَهَّمْنَاهَا

اختلف المفسرون في معناها اختلافا شاسعا، وكأن كل منهم يفسر شيئا غير الذي يفسره الآخر، كما يتضح مما يلي: (عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) قال: مستقرّ الكتاب أوّله وآخره، وعن مجاهد، قوله: (بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) قال في السماء ويقال مطالعها ومساقطها، وعن قتادة، قوله: (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) أي مساقطها، وقال آخرون: بل معنى ذلك: بمنازل النجوم).

ويرجح الإمام الطبري ما يراه أنسب بمعنى الآية حيث يقول: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فلا أقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء، وذلك أن المواقع جمع موقع، والموقع المفعل، من وقع يقع موقعًا، فالأغلب من معانيه والأظهر من تأويله ما قلنا في ذلك، ولذلك قلنا: هو أولى معانيه به)، تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٧) وما بعدها، ومع هذا فما زال المعنى أدق مما رجحه الإمام الطبري وأعجب مما قاله كثيرا.

(١) سورة الأنبياء: ٧٩.

سُلَيْمَانَ"، والقصة مروية بالكامل في كتب التفاسير، وكيف اختلف حكم النبيين في واقعة الغنم التي أكلت الزرع، والتي بنى عليها الفقهاء قولهم إن المجتهد مأجور والحق عند الله واحد.

يقول **الإمام أبو بكر الرازي الجصاص** ــ من فقهاء الحنفية: (أَنَّ الْحَقَّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي وَاحِدٍ مِنْ أَقَاوِيلِ الْمُخْتَلِفِينَ، وَلَكِنْ مَنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَقَدْ أَدَّى مَا كَلَّفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا وَجَبَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَأْجُورٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، بِمَنْزِلَةِ الْمُجْتَهِدِ فِي الْقِبْلَةِ)[1].

ومعنى هذا الكلام أن الله جعل لكل مسألة من المسائل حكما معينا منذ الأزل في لوحه المحفوظ، واستعبدنا سبحانه بالاجتهاد في الوصول إليه وإصابته بعينه "وهو ما اصطلح عليه بأنه الحق"، ولم يطلعنا عليه نصا، بل بالأدلة المتعددة التي توصل إليه، ولكن لابد من استفراغ الوسع، والأخذ بالأسباب العلمية التي تؤدي إلى معرفته.

ولكن نظرا لاختلاف العقول والأفهام، وتعدد الأدلة، واحتمالات المعاني للفظ الواحد، يختلف المجتهدون، واختلافهم هذا معناه أنهم لم يصلوا إلى مراد الله تعالى في المسألة، بل أحدهم فقط هو الذي أصاب المراد، لأن الحق واحد غير متعدد، ولهذا إما أن منهم من أصابه على الوجه الذي أقامه الله تعالى، وإما أنهم كلهم لم يصلوا إليه، ولكن الله تعالى وبرحمة منه بهذه الأمة عصمهم من أن يجتمعوا على ضلالة، ولهذا اطمأن المجتهدون أنهم لا يمكن أن ينتهي بحثهم في مسألة ما إلا وقد أصاب أحدُهم، أو كلُهم عين الحق، الذي أراده الله تعالى في هذه المسألة، وكون

[1] الفصول في الأصول (٤/ ٢٩٧).

الصواب مع البعض دون البعض الآخر، لا يمنع أن رحمة الله تعالى قد شملت الجميع، ولكن تفاوت الأجر فيما بينهم، حيث يضاعف الأجر لمن أصاب، وكأنه يأخذ أجر الإصابة وأجر الاجتهاد الصحيح، بينما من أخطأ ولم يصب الحق المراد فله أجر الاجتهاد فقط، ولا يلحقه وزر ولا تأثيم، وهذا كله برحمة من الله تعالى وفضل.

ويبين هذا حديث الرسول ﷺ إذ يقول: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[1]، والحاكم هنا يراد به كل من اجتهد وحكم في مسألة ما من مسائل الفقه.

(1) أخرجه الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما.

وإذا كان هذا خاصا بالمجتهدين فإن المقلدين لهم، والمتبعين لأقوالهم لا يحل لهم أن يخالفوا إجماعهم، أو يخرجوا عن مجموع أقوالهم أبدا، ومن فعل هذا يكون قوله باطلا مردودا"[1].

(١) وهذه مسألة أصولية سأجتهد أن أوضحها قدر المستطاع، فيا يلي:

معنى أن الحق عند الله واحد، أي أن للخالق سبحانه مراد من كل مسألة معين محدد المعالم، وقد استعبدنا سبحانه بالاجتهاد في الوصول إلى هذا المراد، والذي أطلق عليه المجتهدون لفظ الحق، وقد أقام سبحانه الأدلة التي يتعرف بها على مراده، "الحق"، كما في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل: من الآية ٤٤]، ومع هذا فإن الأدلة حمالة أوجه والنصوص لا يمكن أن تتفق العقول في دلالتها إلا ما شاء الله، ومن هنا كان حال المجتهدين مع هذه النوص الموصلة إلى مراد الله تعالى "الحق" على أقسام كما يلي: القسم الأول: أن يتفقوا جميعا على منى واحد،وعلى سبيل المال اتفاقهم جميعا على حرمة القراءة بغير ما جاء في المصحف العثماني، وهذا إجماع على قول واحد اتفقوا فيه جميعا، فيكون معناه أنهم أدركوا مراد الله تعالى "الحق" يقينا، حيث يمتنع فيه القول أنهم أجمعوا على غير الصواب ــ أي على غير مراد الله ــ لأن الله عصمهم من ذلك، كما بين رسول الله ﷺ بقوله: "سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا) مسند أحمد، وهذا هو الإجماع الصريح.

القسم الثاني: أن يختلفوا على أقوال متفرقة، وهذا القسم له أكثر من وجه:

الوجه الأول: أن يقال أن أقوالهم المختلفة صحيحة، وهذا القول فاسد عند أهل السنة والجماعة لأن هذا معناه تعدد الحق ــ كما يقول المعتزلة ـــ ومعنى تعدد الحق أن مراد الله تعالى غير محدد ومعين بل يتعدد بتعدد المجتهدين، القول فاسد لأكثر من سبب، من هذه الأسباب أن يبتعد عن المعنى الحقيقي لقوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [سورة يوسف: من الآية ٤٠]، وإذا كان مراد الله يتعدد بتعدد المجتهدين فسوف يصل في النهاية أن يكون الحكم للعقول وليس لله، وهو باطل، والسبب الثاني: أن النصوص الشرعية أفادت أن المجتهد يخطيء ويصيب، ومفهوم الخطأ والصواب لا يمكن أن يتحقق إلا بالنسبة إلى شيء ثابت معين ينسب إليه القول فمن أدركه يكون قد أصاب، ومن لم يدركه يكون قد أخطأ، وهذا هو عين ما بينه حديث الرسول ﷺ، وبالتالي يكون الحق ـــ الذي هو مراد الله تعالى في حكم أي مسألة ما ـــ واحدا وليس متعددا، وأما السبب الثالث فيبينه قوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا}، وتحقيق مفهوم العبودية سيظل حاضرا في العقول والأذهان ما دامت مضطرة إلى البحث والتحري قبل العمل بأي قول من الأقوال المختلفة، وهذا التحري يضع إطارا للقيام بواجب العبودية ليظل ظاهرا حاضرا كما يجب أن يكون، بينما عند القول بتعدد الحق سيصبح العمل بأي قول من أقوال الفقهاء صحيحا، فيكفي أن يكون القول معلوما فيعمل به المكلف دون تحري أو سؤال، وبالاعتياد وتمادي الزمن يغيب مفوهم العبودية رويدا رويدا، وتصبح العبادة صورة جافة خالية من أي روح أو استحضار للإخلاص أوالخشية، ولكن من=

وهذا الذي بيناه يخص جانب الأحكام الشرعية والتي يتعلق بها إقامة معنى العبودية والامتثال للخالق سبحانه وتعالى كما أمر عز وجل.

=رحمة الله تعالى أن جعل الحق واحدا ليظل الناس متعلقين بالبحث والتحري كما يبحث الجائع عن الطعام بسبب الجوع، فكذلك لا تقوم العبودية إلا بالبحث والتحري، فجعل الله الحق واحدا، سبحانه وتعالى.

الوجه الثاني: أن تكون أقوالهم المختلفة قد أخطات مراد الله تعالى "الحق" إلا واحدا منها، وقلنا إنه لابد أن يصيب الحق طائفة منهم لأن الله ﷻ قد أجاب دعوة رسوله ﷺ في أن لا تجتمع الأمة على ضلالة، والضلالة هي البعد عن مراد الله تعالى، فالعصمة تتحقق بأن يصيب البعض منهم الحق الذي هو مراد الله تعالى. وهذه المسالة يمكن أن نمثل لها بحكم نقض الوضوء بمس المرأة، فقد اختلف فيه الفقهاء على ثلاثة أقول، عدم النقض بلمس المرأة مطلقا، نقض الوضوء بلمس المرأة مطلقا، والقول الثالث التفريق بين اللمس بشهوة واللمس بغير شهوة، فهذه الأقول ليس معناها أن اي قول يجوز أن نعبد الله به، بل إن مراد الله تعالى واحد فقط من هذه الثلاثة، فلابد من الاجتهاد والتحري في معرفة أي واحد منها هو، ثم القيام بالعبادة بعد ذلك، واليقين أن الناس لن تتفق غالبا على قول واحد تعمل به، فهل معنى ذلك أن بعضهم عبادته صحيحة والبعض الآخر عبادته غير صحيحة؟

والجواب عن هذا السؤال بينه حديث رسول الله ﷺ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ الأَحْزَابِ: «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرَدْ مِنَا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ" ومعنى هذا أن عبادتهم مقبوله مع وجود هذا الاختلاف، ولكن فقط تفاوت الأجر، فمنهم من أخذ أجر العبادة ومنهم من أخذ أجر الإصابة وأجر العبادة، وهذا التفاوت في الأجر فضل من الله يؤتيه من يشاء..

وهذه الصورة الأخيرة هي صورة من صور الإجماع الذي تحرم مخالفته، حيث أجمعوا أن الحق محصور في هذه الأقوال، ولهذا فاستحداث أي قول خارج عن هذه الأقول يكون ليس هو الحق يقينا، وقد عفا الله تعالى عن المجتهدين الذين أخطأوا الحق لأنهم استنفذوا وسعهم في الوصول إليه وليس معلوما أو معينا، بينما استحداث قول جديد بعد عصرهم فإنه يكون العمل به حراماا أن يكون لأنه هو الحق، ولكن لأن الحق لا يتعدد فلا يمكن أن يوجد حقان في نفس المسالة، فلو كان هذا هو الحق لكان معنى ذلك أن المجتهدين الذين اختلفت أقوالهم ليس فيها الحق بمعنى أنهم اجتمعوا على ضلالة ولكن هذا ممتنع لأن الله عصمهم من ذلك، ومن هنا لا يبقى إلا ان القول الحادث خطأ والعمل به باطل، لأن القول الحادث أصبح معلوما أنه ليس هو الحق فليس هو مراد الله تعالى، ومن عبد الله بغير مراده كأنما أشرك مع الله إلها آخر، ونعوذ بالله من ذلك.

أما فيما ليس متعلقا بالأحكام الشرعية، وهو جانب قيام الحجة والعظة والاعتبار، فالأمر على خلاف ذلك، حيث لا يخضع للإجماع الذي تحدثنا عنه، فإن تفسير كلام الخالق سبحانه سيبقى دائما أبدا معطاء ومضيفا الجديد والجديد، مما لم يسبق به الأولون، مهما تطاولت الأعمار والأزمان، فكلامه سبحانه حجة على العباد حتى قيام الساعة، وهذه الحجة لابد أن تناسب تطور العقول والعلوم، ولو كان تفسير النص، المتعلق بهذا الجانب لا يجوز الخروج عنه لما قامت الحجة على أكثر الخلق، ولكن الله سبحانه وتعاليبين أنه حجة على العالمين {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا }[1] ، وقد رأينا بأعيننا كيف تقوم الحجة على البشر من خلال هؤلاء الذين أسلموا من أهل العلم الذين كانوا على الكفر وأسلموا بسبب معنى من معاني القرآن الكريم يثبت بالقطع واليقين أن هذا المعنى لا يمكن أن يأتي به أحد من البشر في عصر نزول الوحي وما بعده من العصور الأولى، بسبب عدم وجود وسيلة من وسائل العلم في هذه الأزمان السابقة تفسر هذه المعاني على وجهها الصحيح"[2] .

---

(1) سورة الفرقان: الآية ١ .

(2) ومن هذه الأمثلة: تفسير قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [سورة النمل: الآية ١٨]، حيث استوقف لفظ يحطمنكم العلماء المتخصصين في هذا المجال، وعجبوا أن القرآن جاء بلفظ التحطيم وليس بلفظ القتل، ولما بحثوا المسألة وجدوا أن النمل يحتوي في تكوينه على نسبة من مادة الزجاج، وفي دراسة حديثة أخرى أن نسبة كبيرة من جسم النملة يدخل في تكوينه عنصر السليكون الذي يصنع منه الزجاج، والتحطيم هو أنسب الأوصاف التي تدل على تكوين جسم النملة.

وبفضل الله تعالى كانت هذه القاعدة ماثلة أمام عيني لم تفارقني فلم أقل قولا ــ في دين الله ــ إلا إذا كان هناك من السلف من سبقني إليه، ولم أخالف إجماعا كما لم أخرج عن مجموع أقوالهم، ولله الحمد والمنة، إلا ما كان من قبيل العظة والاعتبار فقد سرحت فيه بعقلي وخيالي، جهد طاقتي عسى أن ييسر الخالق جل جلاله لي ما ينفع به سبحانه وأنتفع به بفضله وكرمه عظم عطائه.

وليس معنى هذا أنني كنت ناقلا لأقوالهم كما هي، بل المعنى أن هذه هي القاعدة التي حكمت كل أقوالي حتى تلك التي اجتهدت فيها دون أن يخوض فيها السابقون بصورة مباشرة، فقد استخلصت من كلامهم ما يؤكد أنني لم أخرج عن نهجهم، وما كان لي أن أفعل ذلك، والحمد لله تعالى.

هذه القواعد ومثيلاتها تحكم كل ما يتعلق بالأحكام الشرعية ــ من حيث الحل والحرمة والندب والكراهة والتخيير أو الإباحة ــ أما كل ما سوى الأحكام مما يتعلق بالعظة والاعتبار، وأوجه الحكمة المختلفة التي تساعد على استيعاب مقاصد الشرع من تشريع الأحكام المختلفة، فهذا متروك لكل ناظر، وباحث متفكر في ملكوت الله، بشرط أن لا يخرج عن دائرة الشريعة، فلا يصادم نصا، ولا ينقض ثابتا من ثوابت الدين.

وفي هذا الكتيب أتعرض بإذن الله تعالى لمسألة عذاب القبر ونعيمه، وهي من أهم المسائل الغيبية التي حارت فيها العقول المؤمنة ما بين مقر بكل ما جاء في النصوص دون توقف على استحضار وتجسيد المعاني

للعيون والأبصار، وبين مؤول للمعاني بما يجعل الأمر وكأنه لا وجود له من جهة الحقيقة.

وبالمقابل كانت مسألة عذاب القبر ونعيمه من أهم المسائل التي فتحت الباب لأعداء الإسلام، سواء من الملاحدة الذي يحملون أسماء إسلامية، أو من غير المسلمين، والمتربصين بالإسلام والمسلمين، وما ذلك إلا لأن مسألة عذاب القبر ونعيمه مرتبطة بالقبور، وسكان القبور التي يمر عليها الناس في كل مكان ـــ صباحا ومساء وفي كل وقت ـــ دون أن يلمس أحد منهم ما يؤكد حقيقة عذاب القبر ونعيمه.

وعملي في هذا الكتيب ليس من قبيل محاولات النفي أو الإثبات، فما كان لبشر ـ قط ـ أن يكون له مجال فيما قطعت به النصوص الشرعية وأثبتته {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}[1]، بل إن ما أقوم به فقط هو محاولة بيان أن ما جاءت به النصوص، من أخبار الغيب قد أصبح موجودا في حياة الناس الآن ما يمكن أن يكون دليلا ماديا ملموسا على كثير من أمور الغيب التي لا نراها ولا نشاهدها، وبالتالي فإن غرابة ما جاءت به النصوص مما يتعلق بعذاب القبر ونعيمه يصبح ممكن التصور والاستيعاب إذا ما اكتملت الصورة لدى المشاهد المتبصر، وها نحن نيسر له ـــ قدر الطاقة ـــ استطلاع الأمر على نحو مقبول مقدور، ولله الحمد والمنة.

ونظرا لصعوبة الأمر الذي نتناوله فإن من الصعب والعسير أن تتشكل الصورة ويكتمل البيان لدى القاريء الكريم إذا لم يكمل قراءة الكتيب

(1) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

كله، دون قطع لتسلسل الفكرة وترابط الموضوع، حتى تتراص كل خاطرة في موضعها من الصورة إلى أن تكتمل وتتم الصورة كاملة مكتملة، بفضل الله تعالى.

والله أسأل أن أكون قد وفقت في هذا القصد، من التحري والتثبت، وأسأله سبحانه أن يغفر ما وقع مني من خطأ أو زلل، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

عالم المجهول بين التصديق والإنكار

كنا صغارا لا حظَّ لنا من المعرفة إلا أقل القليل، هذا القليل الذي كنا نتلقاه في المدارس، والذي لم ينفعنا كثيرا، في كشف غموض ما جهلناه، من أمور الغيب والآخرة.

وقد يرجع السبب في هذا إلى طبيعة المرحلة التي نشأنا في ظلها، حيث لم يكن من وسائل المعرفة الحديثة شيئ نعلمه، إما لتخلفنا الشديد عن ركب التقدم، وإما بسبب عدم تقدم العلوم على هذا الوجه المعلوم الآن.

📖 **بين التهكم والعجب:**

كانت حيرتنا كبيرة ونحن نبحث عن أجوبة كانت مستعصية على أفهامنا، بل كانت مثار تهكم البعض، وتعجب آخرين.

☜ **أما التهكم**: فلعل مرجعه يعود إلى أن هذه المرحلة كانت تشهد ارتفاعا كبيرا لأصوات من ينكرون الغيبيات بالكلية، وبالتالي شاع على ألسنتهم أن الدين أفيون الشعوب"[1]، بمعنى أنه ملهاة للناس عن الكد

(1) شن الشيوعيون منذ الغزو الشيوعى حملات متكررة للدعاية ضد الدين معتبرين أن الدين أفيون الشعوب، وأن الإسلام ضد العلم وفى خدمة الإستعمار، وأن العادات الدينية تفسد النظام الإقتصادى.، قيلت هذه العبارة بحق أوربة عندما عطلت الكنيسة فيها العقل وجمدته، وشكلت طبقة من الإكليروس متميزة، ظهر منها، ما لا يليق بها .. وخاضت صراعًا عنيفًا بين العلم والدين، وقالت للإنسان: ((أطع وأنت أعمى)) .. لذلك جابهت العلماء، وحرقت بعضهم ـ وعلى سبيل المثال ـ جعلت القول بكروية الأرض ودورانها جريمة. هذه الأحوال المعطلة للعقل، والصادة عن

والاجتهاد، والأخذ بالأسباب المادية الموصلة إلى الارتقاء والتقدم في الحياة والعلوم، ولأن الغيب كان متعلقا ــ في الأذهان ــ بمفهوم الدين، وبخاصة فيما يتعلق بالجنة والنار، والأهم من ذلك تعلقه بالهداية والتوفيق، وهذا أهم ما كانوا ينكرونه بشدة، حيث يرجعون النجاح والتوفيق بالكامل إلى الأسباب المادية، دون أي تدخل لأمر غيبي.

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن حال أهل التدين والالتزام لم يكن يساعد على إسكات هؤلاء المنكرين، أو تزييف دعواهم، فقد كانوا ــ إلا القليل منهم ــ أقرب إلى الرهبنة والعزوف عن عجائب الدنيا، قناعة منهم بأنها ما هي إلا معبر إلى الآخرة.

وفي نفس الوقت ذهب الماديون إلى تعطيل كثير من سنن الله في الخلق، والتي تربط بين التوفيق من الله والنجاح وبين الأخذ بالأسباب برباط لا ينفصم أبدا {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[1]، مع أنهم لو نظروا في أحوال الحياة التي تمر علينا جميعا دون أن ندرك مغزاها حيث ألفناها ولم نعد نتبه إلى موطن الغيب والأقدار فيها، ومن هذه الأحوال أن

العلم، والواقفة عقبة كأداء في سبيل تقدمه، يحق فيها ما قيل عنها. أما الدين الذي جعل من تعاليمه تقديس العقل وتكريم العلم والعلماء في أي اختصاص .. فلا ينطبق عليه القول .. إن الدين الذي من تعاليمه: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) البقرة: ١١١، لا ينطبق عليه القول المذكور. والدين الذي جعل من مبادئه: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) المجادلة: ١١. لا ينطبق عليه القول المذكور. انظر: المكتبة الشاملة.

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

كثيرا من النابغين ضاقت عليهم الدنيا على الرغم من امتلاكهم كل أسباب الوصول إلى مبتغاهم، ومع هذا لم يصلوا، وفي نفس الوقت كم من خاملين غافلين امتلكوا من أسباب الدنيا ما لا يمكن أن تؤلهم ملكاتهم لعشر معشار ما امتلكوه بالفعل.

وكم من مكافح صبر رزقه قليل محدود، وكم من كسول متخاذل يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب، أو ليس كل هذا نراه بأعيننا في حياتنا ونعجب له، دون أن نرده مرده الصحيح، وهو أن كل شيء يجري بحكمته سبحانه، وبقدر معلوم لا يعلمه إلا هو سبحانه، {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[1]، ولو أدرك أهل الصلاح والإيمان ما بين أيديهم من صنوف الإعجاز الذي لا يجاريه مخلوق لما تركوا للمتهكمين طريقا يسلكونه أبدا.

☜ **وأما العجب**: فكان تعبيرا عن الاندهاش مما تنبيء عنه نصوص الشرع، وتعجز عقولنا عن استيعابه، وإن كانت تدرك دلالة هذه النصوص على عِظم المجهول، وضآلة البشر أمامه.

ومن أهم النصوص التي كانت تثير في عقولنا ــ آنئذ ــ حيرة وتساؤلاتٍ عدة قول المولى تبارك وتعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}[2].

(١) سورة لقمان: الآية ٣٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٣.

هل هذا النص مجاز عن كبر مساحة الجنة، أم أنه حقيقة؟ وإذا كان حقيقة فكيف تكون الجنة، التي عرضها "السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ"، ظنا منا أن الكون كله هو السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

ولعل هذا الفهم هو الذي دفع الفريق الآخر إلى التهكم، حيث قالوا: إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين طولها؟ (ولنا في ذلك إشارة عند الحديث عن الحقائق الكونية.

لم نكن ندري حقيقة الإجابة، ولكن بحمد الله تعالى كان ما وقر في قلوبنا من حب فطري لهذا الدين، لا يجعل للشك إلى نفوسنا سبيلا، ولعل من فضل الله علينا سبحانه وعظيم نعمائه، أن هذا الحب لم يكن متوقفا على الفهم، بل هو صبغة تغلغلت في ثنايا نفوسنا، فعصمتنا من كثير من الأهواء والأباطيل والزلل، التي كانت تموج بها الدنيا من حولنا، ولله الحمد والمنة.

ولم يفلح معظم الدعاة ــ على اختلاف مشاربهم ــ في كشف خبايا هذا المجهول، أو تقريب المعنى إلى عقولنا، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولم يملك هؤلاء ــ أو جلهم ــ ملكة البحث والتنقيب والتعلم، والتي لا غني عنها لتحقيق التفكر، والتفقه والتعقل الذي حثنا الخالق عليه.

وبخاصة أن ما أطلق عليه الصحوة الإسلامية، فيما تَلَا هذه الفترة من أعوام، كان يغلب عليه الوعظ وترقيق القلوب، وليس العلم والتعلم، وهكذا أغرقونا في أمور شكلية، على أنها هي لب الدين وجوهره، دون أن يكون لها أي نصيب من إحياء العقول، أو الغوص في خبايا المجهول وكشف أسراره.

إن الخالق سبحانه يخبرنا ويبين لأصحاب العقول والأفهام أن مكنون النفس وأسرار الكون آياتٌ منه سبحانه تدل على أن هذا الدين هو الدين الحق، {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}[1]، وإقامة الحجة على العباد بأنه الحق ـــ القرآن الكريم ـــ غرضها أن يقبل الناس على شرع الله تعالى بحب وقناعة، تحقيقا لأعلى درجات العبودية، والتي من أجلها خلقنا الله، وكلما اطلع الإنسان على عظم المخلوقات كلما استقر في وجدانه عظم خالق هذه المخلوقات، انحنى وسجد خضوعا وذلا وانكسارا، بين يدي الخالق العظيم الذي ليس كمثله شيء، طواعية، رهبة ورغبة، وكلما تمكنت منه هذه القناعة ولانت أعضاء جسده بالطاعة، ارتقت نفسه إلى مرتبة الحب، التي لا تأتي إلا للخواص.

فلا توجد منزلة من منازل العبودية الحق تعدل منزلة العبادة عن حب للخالق سبحانه، هذا الحب لا يزيده الطمع في جنات الخلد، ولا ينقص منه الخوف من عذاب النار، ليس زهدا في الجنة ولا استخفافا بعذاب النار، بل لأن حب الخالق سبحانه، الذي يتمكن من القلب ـ إذا ما أدرك العقل عظمة الخالق ووحدانيته ـــ يغني القلب ويشغله عن كل ما عداه {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}[2] {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[3].

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة البقرة: ١٦٥.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

وحب الله والاطمئنان بذكره سبحانه من عجائب النفس البشرية، التي تحدى الخالق عز وجل بها الخلق، وأنهم مهما بلغوا من العلم لن يحيطوا بخباياها وأسرارها، ومن هذه الخبايا والأسرار هذه المشاعر التي تتمثل في الحب والاطمئنان، والتي تختلف اختلافا كليا عن معاني التهدئة والتخدير، التي يتوصل إليها بالأدوية، ووسائل العلاج الحديثة، إن التهدئة والتخدير تجعل الجسد أقرب إلى الكمون والسكون، وشيء من اللا مبالاة، بينما الحب والاطمئنان يضفي على الجسد والنفس جميعا مشاعر البهجة والرضى، وكأن النفس ترفرف بجناحين كالطائر مبتهجا بعودة أمه أو أليفه، ترقى النفس والجسد، وتتسامى وكأنها لم يعد لها ثقل حقيقي على الأرض، إن كل مؤثرات الدنيا لم يعد لها تأثير ذو شأن، لا سلبا ولا إيجابا، لأن الشاغل والمهيمن الذي تسكن إليه النفس قريب محيط شامل لكل خلايا الجسد، بما يهدهدها ويسعدها ويرضيها، وليس كل هذه المعاني والأوصاف من قبيل البلاغة الخطابية، بل إنها محاولة جاهدة لتصوير معاني الحب والطمأنينة على حقيقتها، ومهما كان قدر النجاح في نزع هذه الصورة فإنها لا تعبر إلا عن القليل القليل.

فليست النفس آلة من الآلات التي تستجيب كلها استجابة مشابهة بالمؤثر الواحد، بل هذه النفس عجيبة لا توجد منها نسخة مطابقة لنسخة أخرى، ولا تشابه تام بين نفس ونفس أخرى، مع أن كل أجهزة الجسد فيها جميعا واحدة، ولكن من عجائب قدرة الخالق سبحانه أنه لا يوجد تطابق أبدا في الاستجابة لمؤثر ما، بين نفس وأخرى، ومع كل هذه المليارات من البشر على مر الأزمان والدهور والاختلاف بين نفس وأخرى يقول المولى

تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }[1]، وسبحان الله العظيم {قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }[2]، ولن يقترب المعنى المراد من عقل الإنسان إلا إذا تفكر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهن، ليرى بعينه من عجائب المخلوقات ما يعينه على الاقتراب من معاني صفات الخالق سبحانه قدر الطاقة والاستطاعة، {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }[3]، (وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ عَالِمًا بِجَمِيعِ أَحْوَالِ النُّفُوسِ، وَقَادِرًا عَلَى تَحْصِيلِ مَطَالِبِهَا مِنْ تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ وَمِنْ إِيصَالِ الثَّوَابِ إِلَيْهَا عَلَى كُلِّ الطَّاعَاتِ، وَإِيصَالِ الْعِقَابِ إِلَيْهَا عَلَى كُلِّ الْمَعَاصِي. وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَمَا ذَاكَ إِلَّا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ)[4]

وياله من تعبير مهيب معجز {قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ} والذي يفيد الهيمنه والقدرة المطلقة، فهل من عجب أن يكون ـــ سبحانه ـــ هو الذي يغذي النفس بالمشاعر المختلفة من حب واطمئنان وغير ذلك، فهو مالكها

---

(1) سورة ق: الآية ١٦.

(2) سورة الطلاق: من الآية ١٢.

(3) سورة الرعد: الآية ٣٣.

(4) تفسير الرازي (١٩/ ٤٤).

ومصرفها ومكسبها الحياة {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}[1].

هذا الإلهام سيبقى أيضا عجيبة من عجائب قدرة الخالق سبحانه، والذي يشكل كل نفس بما يشاء سبحانه، دون أن يعجزه عدد ولا زمن ولا مكان، عظمت قدرته سبحانه.

ويدل الاختلاف الشاسع بين نفس وأخرى، على هذا التمكن والاقتدار الذي تعجز عن تصوره عقول البشر ولو اجتمعت، كل هذا مع أن القلب واحد، وكل خلايا الجسد واحدة، ولكنه الإلهام الذي يجعل مسمى الشيء واحدا، ولكن حقيقته مختلفة، كالحب والاطمئنان على سبيل المثال، فلفظ الحب ينطق به كل أحد، ولكن هل اتحدت صفات هذا الحب وحقيقته، بين إنسان وآخر؟ كلا والواقع يشهد لهذا دون شك أو التباس، فهذا تراه ملهوفا متعجلا بسبب الحب الذي يحمله قلبه، بينما ذاك تراه هادئا مطمئنا، مع نفس مشاعر الحب، وهكذا لا يكاد يتفق اثنان في جوهر المشاعر، ولكن فقط في مسماها.

ومن هنا كان مفهوم العبودية المتمثل في الامتثال عن حب والطاعة عن حب، حتى قال ﷺ "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"[2]، وليس هذا مستغربا فكم من مشقات يقوم بها الناس وهم في غاية السعادة واستعذاب المشقة وكأنت الراحة والبهجة، بسبب أنهم يقومون بعمل يحبونه ويرغبون فيه، وكذلك العبادة عن حب.

---

(1) سورة الشمس: الآيتان ٧، ٨.

٢ مسند أحمد، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

وواهم حقا من يظن أن هذا الحب يمكن أن ينشأ في وجود الجهل، أو سوء الفهم، فإن الخالق سبحانه لا يظلم أحدا، ولهذا فإن التمايز بين الأفراد له قاعدة ينبني عليها، تأسيس هذه القاعدة يبدأ من قبل الفرد نفسه أولا، بمعنى أن الهداية والصلاح ليست منحة خالصة من الله تعالى بل لابد لصاحبها من إقامة معنى العبودية في نفسه أولا، فإن الذي يترك نفسه في خضم أمواج البحر دون أن يحرك أعضاء جسده طلبا للنجاة سيغلب عليه الهلاك لا محالة، ولكن من يبذل ما في وسعه إقامة لما هو واجب عليه، سيغلب عليه النجاة بسبب أو بآخر، وهنا يظهر توفيق الله وهدايته، حيث يمنحه سبحانه القوة على الاستمرار، ويسخر له من الأسباب ما يؤدي إلى نجاته، وكذلك الهداية والتوفيق للخير والصلاح، لابد من البداية من قبل العبد امتثالا لتكليف الخالق تبارك وتعالى، ثم بعد ذلك يأتي الإلهام والتوفيق من الخالق جل في عليائه، والله أعلى وأعلم، وكلما كانت القلوب والعقول نابهة سليمة، كانت البدايات صحيحة، وبهذا تكتمل معاني التكليف بالعبودية، والامتثال بالطاعة، وإذا ما تحقق هذا سيصبح قلب الإنسان وعقلا قادرا على فهم الغيبيات، بل واستشعارها أيضا، بما يمن به عليه الخالق ﷻ.

ولم يكن الصحابة رضوان الله عليهم ــ مع أميتهم ــ على جهل أو عمى، بل كانوا ألمع الناس ذكاء وقدرة على إدراك كثير من آيات الله تعالى، ولكن كل بحسب البيئة التي عاش فيها، وبقدر ما تسمح به من معرفة، فهذا أعرابي يدرك من آيات الله ما لا يدركه كثير من المتعلمين في عصرنا حيث يقول: "البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج، ونهار

ساج، وَأَرْض ذَات فجاج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير"، وهكذا عندما حملوا راية الشريعة ملأوا الدنيا هداية ونورا.

ومع هذا قل أن تجد أحدا من أهل الالتزام ــ في عصرنا ــ يبرع في شيء مما يوصل إلى هذه الآيات، سواء أكانت وسيلة الوصول إلى العلم بها عن طريق المختبرات، أو عن طريق البحث والاجتهاد النظري.

كانت خطبة الجمعة مدعاة لأن تكون منهلا ورافدا لا ينضب، لو كان هؤلاء الدعاة أهلا لسبر أغوار العلوم والتقاط دررها، ولكن بكل أسف كانوا إما ثمرة للتخلف الذي نرزح تحت أصفاده وظلماته، أو كانوا هم أنفسهم أحد صناعه وحراسه، أو كانوا هذا وذاك معا، ولست أتهمهم في نواياهم ولكن أعيب عليهم استسلامهم للراحة والخمول، وتزاحمهم في دائرة القشور دون الغوص في ثنايا المضمون.

لقد نجحوا ــ على جهل منهم ــ في تزيين مقولة المتهكمين من الدين: إن الدين أفيون الشعوب، وبخاصة أن النهضة الأوروبية الهائلة ترتبط في أذهاننا بالتمرد على الدين، مما ساهم إلى درجة كبيرة في الاستحواذ على كثير من العقول، فانساقت طائفة من الشباب خلف هذا الشعار بالكلية، ولفظت كل ما يتعلق بالإسلام شكلا وموضوعا، وأصبحت قبلتهم هي الغرب بكل ما فيه من غث أو سمين.

وطائفة أخرى وقعت في براثن الحيرة ولم تجد من يعينها على الخروج من هذا التيه، فلا هي أحسنت الأخذ بمفهوم الإسلام الحق، ولا هي ابتعدت عنه بالكلية، لكنها في كل حال لم تكن أبدا ممن يحسنون عرض

الدين بأفعالهم، بل جل تصرفاتهم تنحو **وتتجه** إلى تمثل الغرب بصورة أو أخرى.

لست هنا بصدد الحكم على هؤلاء أو أولئك، بل هي فقط محاولة لرسم صورة عن واقع عشنا ونشأنا فيه، وكان له أعمق الأثر فيما صرنا إليه من جهل بالإسلام وتضييع معالمه، وما أشد آفة الجهل إن لم يدرك صاحبها أنها موجودة.

لقد نجح هؤلاء الوعاظ في الإعلاء من شأن الموت، واستنفار الهمم في الاستعداد له، حتى ولو أدى ذلك إلى العزوف عن الدنيا وما فيها، فلم يكن التذكير بالموت من خلال استحضار أنه الحقيقة الكبرى في الحياة، التي تدل على صدق ما جاء به الرسول ﷺ، بل كان التذكير به من باب الحث على الزهد والحذر من الدنيا، وتجنب الغوص في معضلاتها، ولكم كثرت الكتب التي روجها هؤلاء، والتي تتحدث عن القيامة وقرب موعد الساعة، وكأنها تنادي أهل الشريعة والالتزام ليتركوا الدنيا ويتخففوا من حملها، استعدادا للساعة التي توشك أن تقوم في خلال سنوات معدودة.

إن أعظم حقيقة في الوجود يلمسها كل بشر ليل نهار هي حقيقة الموت، ولكن هل معنى هذا أننا خلقنا لنموت؟ أم أننا خلقنا وسنموت؟

إن قصر الخلق على أنه سبب للموت يلغي أي معنى لابتلاء الإنسان بالحياة، وهذا يغاير مراد الله تعالى من الخلق والذي يبينه قوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[1]، وقوله جل في علاه: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى

١ سورة هود: ٧.

الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[1] **يقول الإمام القرطبي**: (وَأَنَّ كُلَّ مَا عَلَى الْأَرْضِ فِيهِ زِينَةٌ مِنْ جِهَةِ خَلْقِهِ وَصُنْعِهِ وَإِحْكَامِهِ)[2].

☜**وبالها من آية عجيبة تلك التي تربط بين الابتلاء والزينة**، وكأنها تلفت النظر إلى أن مفهوم الابتلاء ليس قاصرا على المعاناة والمشقة والتعب، والذي يناسبه ذكر الموت، وكأنه المهرب من هذا الابتلاء، بل إن الابتلاء يتحقق حتى في الشيء الحسن الجميل، الذي تطلبه النفس وتهفو إليه، ومع هذا فهو موضع اختبار أيضا، وكيف لا وقد قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}[3].

وفي الحديث عَنْ سيدنا أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» وَفِي حَدِيثِ ابْنِ بَشَّارٍ: «لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[4].

فقد خلق الله الدنيا حلوة خضرة ولم يصرف الناس عنها ويأمرهم بالاستعداد للموت، بل استخلفهم فيها ليتحقق مراده عز وجل ويتمايز الخلق فيما بينهم، ولو انشغل الناس بالموت والاستعداد له دون النظر في آيات الله في الخلق لكان نكوصا عن الطاعة، وصدا عن سبيل الله، لأنهم لم يحققوا مراد الله فيهم بأن يظهروا آيات الله في الخلق، حتى وإن كان الطريق

---

١ سورة الكهف: ٧.

٢ تفسير القرطبي

٣ سورة التغابن: ١٥.

٤ صحيح مسلم

إلى ذلك محبوبا مرغوبا، فليس مطلوبا من حياة البشر أن يعيشوا في هم وحزن لأن مآلهم إلى الموت، ولو كان الأمر على هذا النحو فلمن يكون خطابه سبحانه وهو ينبه مرة بعد مرة على أن عظيم آياته إنما هي: "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، "لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ"، "لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ"، "لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[1].

☜ **إن مفهوم الابتلاء ليس قاصرا على المرض والفقر والمصائب وغيرها مما يدرك الناس معناه**، بل إن الابتلاء الأهم أن يصبر الإنسان على البحث والتعلم والمثابرة طمعا في الوصول إلى كشف المجهول الذي يستطيع الإنسان من خلاله الإقرار عن يقين باستحقاق الخالق للعبادة وحده لا شريك له، وكيف لا؟؛ وكل آية تدل على عظمة الخالق سبحانه، ولن يعبد أحدٌ ـــ أبدا ـــ الخالقَ سبحانه حق العبادة إلا إذا أدرك عظمته وتفرده عن كل ما عداه، وليس أدل على هذه العظمة من الحسن والإبداع الذي يعجز

١ سورة الروم: ٢٠ – ٢٤.

عنه كل المخلوقين، {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}[1]، وغير ذلك مما يؤكد هذا المعنى كثير.

ويا ليت كل هؤلاء ــ الذين تتفنن ألسنتهم في ذكر الموت واستحضاره في كل موعظة أو توجيه ــ أخذوا من ذكر الموت الجانب الذي يعظم لديهم قيمة الحياة، لأن الحياة هي التي تمهد لهم المنزلة التي تنفعهم بعد موتهم، كما أن التفكر في آيات الله تعالى في كونه وخلقه هي من أعظم العبادات، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا بالمثابرة والجد والاجتهاد، {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[2]، {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[3].

إن تنوع الخطاب القرآني والحث على التفكر في آيات الكون يدل على أن الوصول إلى إدراك خبايا الأرض والسماوات وما فيهن جدير أن يوصل إلى إدراك عظمة الخالق سبحانه، كما يساعد أيضا في امتلاك عوامل التميز والقوة والتفرد التي تليق بأهل هذا الدين الحق، بما يجعلهم قبلة لمن رام أن يحذو حذوهم، فيتبع ملتهم، وهكذا يتحقق قول رسول الله ﷺ فيهم: "فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ

١ سورة السجدة: ٧.

٢ سورة البقرة: ١٦٤.

٣ سورة آل عمران: ١٩٠.

النَّعَمِ»[1]، ولن يكون الخامل الغافل، أو من يطلق عليه الزاهد العابد ــ من منظور الوعاظ والقصاص ــ سببا لهداية أحد، بل لعله أقرب إلى تنفير الناس من الدين، وليس هدايتهم إليه.

إن الاستغراق في توجيه طاقات الناس إلى استحضار الموت ــ تخويفا وترهيبا ــ قد ساعد في تنفير الناس من الإسلام وعزوفهم عن تعاليمه، لأن الله فطر الخلق على حب الحياة، وكل ما يصادم الفطرة ويعطلها يكون قبوله صعبا وعسيرا، ولا يمكن أن تستقيم حياة الناس إلا إذا أخذوا من الدنيا بالأسباب التي تجعل حياتهم سهلة محبوبة، وكل هذا لا يخرج عن مفهوم العبادة، {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[2].

١ البخاري ومسلم وغيرهما.

٢ سورة الأنعام: ١٦٢.

الموت وخصائص المادة

عندما نتناول موضوع الموت ولقاء المجهول لا نريد أن نتغنى بمراتع الدود ولا غياهب الظلمات، ووحشة فراق الأحبة، وغير ذلك مما يدور في نفس المعنى، بل نهدف ــ بتوفيق الله عز وجل ــ أن نخترق حاجز اللوعة وبكائيات الهم والحزن، لنتعرف على هذا المخلوق الذي لا يشوبه شك"[1]، هذا الواعظ الجليل المهيب، الذي اعتاده الناس فغفلوا عنه، هذا الحاضر الغائب، الذي لا يوجد أقرب ولا أبعد منه، أقرب من حيث معايشة الناس له ليل نهار، وأبعد من حيث جهل الناس بذاته وآياته، تلك الآيات التي تكاد تنطق وتقول أفيقوا يا أهل الإسلام، وتعلموا كيف تصلوا إلى فقه آيات الله في كونه، وفي أنفسكم، فإن هذا هو السبيل إلى طاعة ربكم.

---

١ الْمَوْتُ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ، خِلَافًا لِلْفَلَاسِفَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}. وَالْعَدَمُ لا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا. وَفِي الْحَدِيثِ: (أَنَّهُ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ) متفق عليه. وَهُوَ وَإِنْ كَانَ عَرَضًا فَاللهُ - تَعَالَى - يَقْلِبُهُ عَيْنًا، كَمَا وَرَدَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ: أَنَّهُ يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةِ الشَّابِّ الْحَسَنِ، وَالْعَمَلُ الْقَبِيحُ عَلَى أَقْبَحِ صُورَةٍ وَوَرَدَ فِي الْقُرْآنِ: أَنَّهُ يَأْتِي عَلَى صُورَةِ الشَّابِّ الشَّاحِبِ اللَّوْنِ، الْحَدِيثَ. أَيْ قِرَاءَةَ الْقَارِئِ. وَوَرَدَ فِي الْأَعْمَالِ: أَنَّهَا تُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ، وَالْأَعْيَانُ هِيَ الَّتِي تَقْبَلُ الْوَزْنَ دُونَ الْأَعْرَاضِ. وَوَرَدَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ: أَنَّهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ. وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ، شرح الطحاوية – لابن أبي العز الحنفي (ص: ٧٩)

وأول ما يُنبيء به الموت ــ إعلاما عن ذاته وحقيقته ـ هو ما نراه من تحلل الجسد إلى تراب، وقبل أن نُرجع ذلك إلى التأثيرات الحشرية والكيماوية، تعالوا ننظر إلى هيكل القبر وجسم المقبرة، الذي لا تؤثر فيه الحشرات ولا التفاعلات الكيماوية، لنتأكد أنه لم يتغير ولم يتبدل ــ تقريبا ــ مهما طال به الوقت، مع أن عناصره هي نفس عناصر الجسد، حتى وإن اختلف التركيب والنسب، بما يعنى أن هناك تفاوتا بين الأشياء وبعضها حتى وإن كانت مكوناتها واحدة، وأن هذا التفاوت وراءه أسرار لا نعلمها، ولهذا استطاع الفراعنة تحنيط الجسد البشري ليبقى آلاف السنين، دون أن يتحلل، حتى وإن كان مآله إلى التحلل"[1]، والذي يجب أن نعيَه جيدا ــ بالنسبة لمسألة التحنيط ـ أنه تصرف في الجزء الترابي، الذي يملك البشر إخضاعه لكافة أنواع التجارب والفحوصات، وبقدر تمكنهم من فهم أسراره بقدر استطاعتهم التحكم فيه، ولا غرابة في ذلك مطلقا، فليست المادة الترابية مما اختص بها الخالق نفسه دون البشر، بل هي متاحة لكل من أخذ بالأسباب الصحيحة التي تسبر أغوارها، ولعل معجزة التحنيط التي برع فيها الفراعنة، فاحتفظوا بأجساد فراعينهم آلاف السنين دون أن تتحلل، تبين لنا معنى أن

١ لأن قول المولى تبارك وتعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [سورة طه: الآية ٥٥]، هذه الآية تدل على أن الأجساد لابد أن تتحلل وتصبح ترابا، فبل أن تبعث مرة أخرى، وإن قيل إن الحديث يدل على أن أجساد الأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ لا تأكلها الأرض، فيكون هذا استثناء من الآية بالدليل الشرعي وهو الحديث، ويبقى كل ما عداه على عمومه، بمعنى أن كل ما عدا ما ورد في النص لابد أن يكون مآله إلى التراب بعد الموت، بما في ذلك الأجساد التي تم تحنيطها.

الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، كما في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ»[1]، مع وجود الفارق بين صنعة الخالق سبحانه الذي ليس كمثله شيء، وبين صنعة البشر، التي ييسرها الخالق على أيديهم لتكون آية ودلالة على ما أخبر به الشرع، وليس مما هو معهود عندهم، فإن الجسد الذي لا يتم تحنيطه سيتحلل لا محالة"[2].

📖 **ومن أهم الآيات التي تطالعنا ـ في هذا الأمر ـ أن تحلل الجسد نعمة كبرى من نعم الله علينا**، وليس هذا لأنها تقينا الأمراض وغيرها من الأوبئة فقط، بل أيضا لأنه لو بقي الجسد دون تحلل لكان عبئا كبيرا، حتى ولو لم ينشأ عنه مشكلة مرضية، إذ كيف كان يمكن أن يكون عليه الحال لو بقي الجسد دون تحلل، من ذا الذي يستطيع أن يستمر في حياته بصورة طبيعية وهو يرى الموتى حوله في كل مكان، يراهم كما كان يراهم وهم أحياء، ولكنهم الآن لا حراك بهم، ولا وجود لهم إلا بهذه الصورة الميتة.

---

١ سنن أبي داود، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

٢ التفريق بين التحنيط وبين أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، يمكن أن يظهر من عدة أوجه، منها: أن الأجساد التي تم تحنيطها لابد أن تتحلل تماما ولو بعد آلاف السنين، بينما أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم لا تتحلل، ومنها: أن أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم باقية كما هي، دون أي تغير، بينما الأجساد التي تم تحنيطها انتزع منها الأجزاء الداخلية، والباقي هو الهيكل الخارجي فقط، ومنها: أن أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم لم تتغير ولا ينبعث عنها ما ينفر الناس، بينما التحنيط لا يرقى لأن يبقي الجسد المحنط على نفس هيئته السابقة تماما، بل يتغير إلى درجة ما لا محالة، وغير ذلك مما لا أدركه، والله أعلى وأعلم.

إن الإنسان لا يستطيع أن يستمر في حياته بصورة طبيعية لو بقي لفترات طويلة موجودا بين النيام، حيث يصاب بالخمول والكسل، بل سيعتريه أيضا السآمة والملل، ومع الوقت تتمكن منه الكآبة، ويفقد الرغبة في الحركة والعمل، فإن البيئة المحيطة بالإنسان لها عليه تأثير نفسي كبير، حتى ولو لم يفطن إليه، فكان من نعم الله تعالى على الأحياء أن أذن للأرض أن تأكل أجساد الموتى، رحمة منه سبحانه.

ولو قيل إن الموتى سيدفنون في التراب ـــ دون أن تتحلل أجسادهم ـــ فلا يتأثر بهم الأحياء، فأي أرض هذه التي تسع كل هؤلاء الموتى على مر السنين والأزمان، إن لم تتحلل أجسامهم.

إن الجزء اليابس من الكرة الأرضية ـ الذي يمكن للإنسان التعامل معه والانتفاع به ـــ لا يمكنه بحال أن يضم هذه الأجساد الميتة، حيث إن الموتى يتزايد عددهم بصورة مطردة منذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة، بينما مساحة اليابسة ـــ التي ينتفع بها الإنسان ـــ تكاد لا تزيد مساحتها مهما مرت الأزمنة، فلا تستطيع إخفاء أجساد الموتى، التي تتزايد دوما مع مرور الوقت، أما الجسد بعد تحلله فإنه يصبح بعض حفنات من التراب، تتناقص على مر الأزمان، بفعل دورة الحياة، وبفعل الرياح التي تساعد في حركة التراب، حتى لا يتراكم في مكان واحد، ويبقى بعد ذلك الجزء المائي من الكرة الأرضية المتمثل في البحار والمحيطات، قادرا على استيعاب كل ما يتخلف عن الموتى من تراب، بل يمكنه أن يبتلع الجزء اليابس بأكمله لو أذن له الخالق سبحانه بذلك.

لماذا يقبر الميت؟

من أهم ما يمكن أن يثار في مسألة القبور أنه لو تم إحراق الموتى، أو إلقاؤهم في البحار والمحيطات، لأمكن حل مشكلة عدم تحلل الأجساد ــ إن كانت لا تتحلل ــ وبالتالي فليس التحلل آية في ذاته.

ويجاب عن هذا:

لا شك أن الجواب عن هذه المسألة سيقودنا مباشرة إلى قضية الألوهية وأن الخالق سبحانه هو وحده المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه، {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[1]، وأما سبب ذلك فمرجعه إلى أن الله ﷻ كفانا بالأحكام الشرعية، وما فيها من أوامر ونواهي ما يمكن أن نقع فيه من مخاطر وأضرار، قد لا يمكننا أن نتدارك أثرها أبدا، وما ينشأ عن ذلك من معاناة وآلام، وما ذلك إلا لقصور العقول عن إدراك نتائج الأشياء قبل الوقوع فيها ومباشرتها، إلا ما شاء الله، فإن علم الإنسان قليل، ولا يمكنه إدراك حقيقة ما يجهله على نحو صحيح، ومن أجل ذلك لو لم يكن إيمان الإنسان بالخالق جل في علاه إيمانا صادقا، فلن ينجو من الوقوع في هذه المهالك، ولا يغرنك الغلاف الزائف الذي يغلف الأمم الكافرة، فكم من موبقات مهلكة تحيط بهم وتغشاهم، دون أن يشعروا بخطرها ومضارها، وتقودهم إلى حتفهم مهما طال بهم الزمن.

---

١ سورة آل عمران: الآية ٨٣.

بينما الإيمان والتصديق هما الدرع الواقي من كل ذلك، لأنه سيجعل الامتثال لأحكام الشريعة أمرا عبوديا، لا يتوقف على إدراك العقل وقناعته، وهذا وإن كان من تمام العبودية الحق، فإنه أيضا آية من آيات رحمة الله تعالى، كما نتبين من مسألة القبور.

حكمة الدفن في القبور:

كرم الله الإنسان {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[1]، والتكريم أمر خاص بالخالق سبحانه، ولا يعلمه إلا هو، وإن اطلعنا على البعض منه، ومن ذلك {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[2]، ويؤكد المولى تبارك وتعالى أن التسخير "جَمِيعًا مِنْهُ"، (يقول: كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعا منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك)[3]، فهو سبحانه الذي كرم بني آدم، وهو سبحانه الذي سخر لهم، (يَعْنِي أَنَّ ذَلِكَ فِعْلُهُ وَخَلْقُهُ وَإِحْسَانٌ مِنْهُ وَإِنْعَامٌ)[4].

---

١ سورة الإسراء: الآية ٧٠.

٢ سورة الجاثية: الآية ١٣.

٣ تفسير الطبري (٢٢/ ٦٥)

٤ تفسير القرطبي (١٦/ ١٦٠)

أفلا تكون أحكام الشريعة معبرة عن الإحسان والإنعام، سواء أدركت عقولنا ذلك أم قصرت عن إدراكه؟ بلى إنها لكذلك {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[1]، وها هي الآية تبين أن أوامر الخالق سبحانه ونواهيه هي الخير والإحسان كله، وإذا استقر هذا المعنى في النفوس والعقول سيكون سهلا أن ندرك لماذا أمر الخالق سبحانه بدفن الموتى، وليس التخلص منهم بأي وسيله أخرى.

يقول تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا}[2] (أَيْ ضَامَّةً تَضُمُّ الْأَحْيَاءَ عَلَى ظُهُورِهَا وَالْأَمْوَاتَ فِي بَطْنِهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ مُوَارَاةِ الْمَيِّتِ وَدَفْنِهِ، وَدَفْنِ شَعْرِهِ وَسَائِرِ مَا يُزِيلُهُ عَنْهُ)[3].

ونفهم من هذا أن الخالق سبحانه إنما أمر بالدفن لأنه أحسن الأشياء للإنسان، لأن الله لا يأمر إلا بالأحسن، وكذلك لأن هذا من مظاهر تكريم الإنسان، وما أعظم شريعة الإسلام التي كرمت الإنسان حيا وميتا، واعتبرت حرمته واحدة في الحالين ــ الحياة والموت.

وقوله تعالى: {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}[4] (أَيْ جَعَلَ لَهُ قَبْرًا يُوَارَى فِيهِ إِكْرَامًا، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِمَّا يُلْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ تَأْكُلُهُ الطَّيْرُ والعوافي"[5]، **قاله الفراء**،

---

١ سورة النحل: الآية ٩٠.

٢ سورة المرسلات: الآيتان ٢٥، ٢٦.

٣ تفسير القرطبي (١٩/ ١٦١)

٤ سورة عبس: الآية ٢١.

٥ العوافي: طلاب الرزق من الانس والدواب والطير، والمراد هنا: الوحوش والبهائم.

وقال أبو عبيدة: فَأَقْبَرَهُ: جَعَلَ لَهُ قَبْرًا، وَأَمَرَ أَنْ يُقْبَرَ)[1]، فليس القبر لستر السوأة فقط، ولكن أيضا تكريما وإحسانا من الخالق سبحانه، وكل ما يفعله البشر غير ذلك مهما علا قدره في نفوسهم باطل ومنكر وتصرف غير سديد، {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[2] وكل حكم يخالف شرع الله تعالى هو من أحكام الجاهلية، سواء أكانت الجاهلية القديمة أو الجاهلية الحديث، وكل حكم جاهلي يحمل في طياته مزالق ومضار لا حصر لها، فقد أبى الخالق سبحانه وتعالى أن يشاركه غيره في قدره وأحكامه، فجعل حكمه هو الوحيد الذي يقود الناس إلى بر الأمان، وما سواه من الأحكام أكسبها الله من الصفات والخصائص ما تثبت بالضرورة أنه سبحانه الحق المصرف لكل شيء في الكون على الوجه الذي يريد، بمعنى أن كل ما سوى حكم الله لا يكون آمنا للإنسان مهما زينه له عقله وهواه، ولهذا كان الإيمان والتصديق هو السبيل الآمن، وما من سبيل آمن سواه {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}[3].

بدائل القبر عند البشر:

أعلم أن من ضمن العادات التي مازالت متبعة حتى الآن عادة حرق جثث الموتى، وقيل إن بعض القبائل تأكل جثث موتاها، وقد يكون مما قد تزينه العقول إلقاء الجثث في البحار.

---

١ تفسير القرطبي (١٩/ ٢١٩)

٢ سورة المائدة: الآية ٥٠.

٣ سورة الزمر: من الآية ٥٥.

ونلاحظ أن هذه الوسائل لا تلقى قبولا إلا من بعض البشر بينما يستهجن البعض الأخر كل هذه الطرق، نظرا لما تمثله من بشاعة وقبح، في ذاتها، ولو تفحصنا هذه الطرق بعين محايدة لوجدنا أنها جميعا لا تخلو من عوج وانحراف عن الفطرة السوية، ويغلب على الظن أنها تخفي في طياتها من الأضرار والمخاطر ما كفانا الخالق سبحانه بأن أمرنا بدفن موتانا، ومن الممكن أن نتفهم بعض هذه المضار، حين نتصور أن الجثث التي تلقى في البحار سوف تأكلها أسماك البحار، ثم نأكل نحن الأسماك، وكأننا أكلنا موتانا ـــ بصورة من الصور ـــ ولو سار الأمر على هذا النهج لأصبح الإنسان كالوحش في غلظته وشراسته، ولفقد صفات الآدمية التي كرمه الله بها، ولعل هذا المعنى هو الذي حرم الشرع بسببه على الإنسان أكل لحوم المفترسات من الطير والحيوان، ولو استحضرنا قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}[1]، لأدركنا الحكمة من التحريم أو بعضا منها، وتتمثل الحكمة في أن خصائص الأشياء ليست ذاتية على النحو الذي يظنه الناس، بل إن كثيرا منها يشبه المشاعر التي تتفق في الاسم وتختلف في الحقيقة، بمعنى: تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه لا يمتنع أن تكون الحكمة منه أن عدم التسمية يؤدي إلى أن اللحم يكون به ـــ على سبيل التمثيل ـــ انزيمات ضارة، وليس بالضرورة أن يتمثل الضرر في نوع من السمية مثلا، بل يمكن أن يكون الضرر في التأثير السلبي على خلايا جسد من يأكل منها والتي يمكن أن تسبب أمراضا إما عضوية

١ سورة الأنعام: الآية ١٢١.

أونفسية، وكل هذه الأنزيمات ــ على سبيل المثال ــ يتوقف إفرازها إذا تمت التسمية على الذبيحة، ونحن نؤمن أن هذا أمر غير ممتنع عقلا وشرعا، ولكن من لا يؤمن بعظمة الخالق ﷻ لن يمكنه تصور مثل هذه الحقائق، لأنه سيخضع الأشياء للجانب المادي فيها دون الجانب الغيبي، والذي يبينه قوله تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[1]، ونفهم من هذه الآية الكريمة أن خالق الخلق يهدي خلقه لأداء الوظيفة التي خلقهم من أجلها وطبع خلاياها على ما يؤهلها للقيام بهذه الوظيفة دون خلل أو اضطراب، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}[2]، ونخرج من ذلك أن إلقاء الجثث في البحار ستكون عواقبه على الإنسان وخيمة، والله أعلم.

ولو قلنا بان إحراق الجثث سوف يحل المشكلة أيضا ــ من الجهة العقلية ـ فسوف يستوقفنا نهي الشرع عن التعذيب بالنار، أو التمثيل بالجثث بها، «فَإِنَّهُ لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»[3]، ومع هذا يمكن أن ندرك بعض معاني الحكمة أيضا من هذا النهي، أي النهي عن حرق الجثث، ولعل الحكمة أن من يحضر حرق الجثث يستحضر هو أيضا مآله من الحرق، فيقسو قلبه، وتضطرب مشاعره، وسواء أدركنا ذلك أم لم ندركه فإن نهي الشارع عن الشيء دليل على أنه يخبيء من المجهول الذي نخشاه الشيء الكثير، فكان من رحمته سبحانا أن كفانا هذا المصير، وأحاطنا بحمى شريعته، وقاية لنا مما نجهله، ولا نطيقه إن ألم بنا، والعياذ بالله.

---

١ سورة طه: الآية ٥٠.

٢ سورة الفرقان: من الآية ٢.

٣ سنن أبي داود، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

وقوله تعالى: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}[1]، ليس بالضرورة أن تكون الكراهية استبشاعا للفعل فقط، بل أيضا يمكن أن تكون بسبب أن أكل لحوم الآدمي الميت يكسب آكله صفات الكره والبغض والنفور للآخرين، وكذلك يجعله مكروها من الآخرين، بسبب ما يمكن أن يبعثه الجسد ـــ مثلا ـــ من موجات، أو انبعاثات تجعل صاحبها منفرا مكروها بغيضا، وكل هذه المعاني مما لها أمثلة في الكائنات، يعرفها أهل العلم، ولا ينكرونها، وكل هذه الصفات من مخلوقات الله تعالى، وهو سبحانه عليم بها خبير بما تسببه، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[2].

ولعلنا بهذا البيان الموجز نكون قد أدركنا أن دفن الموتى في المقابر كما أمر الخالق سبحانه لا يعدله شيء آخر من ابتدعه البشر بأهوائهم، وهكذا يمكن أن يكون الدفن آية من آيات الخالق التي يظهرها للعباد ليؤمنوا به سبحانه ويقروا أنه الإله المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه، جل في علاه.

إن الموت يمثل حقيقة من أهم الحقائق المادية الملموسة في الحياة، ولو تفكر الإنسان فيما يحمله الموت من آيات وحكم لما وسعه إلا أن يخر ساجدا مسبحا بحمد الخالق جل في علاه، لهذه النعم التي لا تحصى والإحكام المعجز الذي يسير عليه كل شيء في الكون، والذي بلغ من سلاسته ودقته أن اعتاده الناس حتى غفلوا عنه، ولو تغير الحال واضطربت قوانين الحياة لتحولت حياة الناس إلى جحيم، وأصبحت حياتهم لا تطاق

١ سورة الحجرات: من الآية ١٢.

٢ سورة الملك: الآية ١٤.

ولا تحتمل، فسبحانه جل جلاله أحسن كل شيء خلقه وأتقنه، وهذا الكون وما يجري فيه خلقه وصنعته {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[1].

📖 ماذا لو تحلل بنيان المقبرة؟

ماذا كان يمكن أن يكون عليه الحال لو نجحت الحشرات والتفاعلات الكيماية في تفتيت بنيان المقبرة، ماذا كان يمكن أن يكون عليه الحال لو تفتت هذا البنيان كما تتفتت الأخشاب، إذا ما أصابتها سوسة الخشب ــ على سبيل المثال ــ وماذا لو فقدت مواد البناء خواصها، فأصبح الإسمنت الذي يمسك بباقي المواد غير قابل للتماسك، كالرمل أو الطين مثلا، أليس التخزين السيء مع عامل الزمن يتسبب في فساد هذه مادة الإسمنت التي لولاها ما ارتفع بنيان، تقريبا، ما المانع أن تفسد هذه المادة بعد البناء بمرور الوقت والزمن فينهار كل بناء؛

الذي لا شك فيه أنه لا يوجد مانع إلا أن الله عز وجل منع ذلك، ولو شاء لتآكلت مواد البناء كغيرها من الأشياء، وهكذا تُظهر خواص الأشياء كيف تتجلى رحمة الله بالعباد في كل شيء، {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ}[2]، فخواص ماء المطر نعمة من نعم الله تعالى على الخلق، وليست خاصية ذاتية لا تتبدل ولا تتغير، بل لو شاء سبحانه لجعله مالحا كماء البحر، أو (زُعاقًا مُرًّا لَا يَصْلُحُ لِشُرْبٍ وَلَا زَرْعٍ)[3]، وهكذا خواص كل

---

١ سورة النمل: ٨٨.

٢ سورة الواقعة: ٦٨ – ٧٠.

٣ تفسير ابن كثير (٧/ ٥٤١)

شيء، لو شاء الله لأخذ من هذه لتلك أو العكس، أو يسلب من شيء بعض خواصه أو يزيد عليها، {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1].

إن عظام الميت تتفتت ـــ لو تعرضت لنفس العوامل الخارجية التي تتعرض لها مباني المقبرة، مع أنها قد تكون أشد صلابة من بعض قوالب الطوب التي تبنى منها المقبرة، أو البيوت، ومع هذا لا تتأثر المباني بما يتأثر به الجسد، ليرينا نعمة أخرى لم نكن لنفطن إليها لولا ما نراه مما يحدث في القبور، إنها نعمة لو انعدمت لأصبحت حياة الناس جحيما لا يطاق لأنه لن تقوم لهم أبنية ولا غير ذلك، إن لحقها التحلل والتفتت.

إن امتناع هذه الجمادات المتمثلة في الطوب والخرسانة من التحلل ليس من عند ذاتها، ولكنها نعمة من نعم الله على الخلق، ولو شاء لسلبها إياها، ولتحللت وتعقدت حياة الناس، فهل يعقلون، وانظر إلى قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[2]، لو كانت أمور الكون تسير بالخواص الذاتية دون تبديل ولا تغيير لما كان لقوله تعالى: "إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ" ولو كان الريح يتحرك من تلقاء نفسه، من حيث الحركة والسكون، دون خضوع لمؤثر آخر، فسوف يكون سكونه وتوقفه بالخواص الذاتية، ولكن دخول مشيئة الله تعالى تفيد أن الله عز وجل لو شاء أن يسلب الريح خواصه لفعل، وكذلك خواص كل شيء في الكون، منحة من الخالق سبحانه، وواهب الشيء قادر على سلبه

١ سورة فاطر: ١.

٢ سورة الشورى: ٣٣.

لو شاء، وقادر على تغييره وتبديله لو شاء، وهذا هو المعنى من قوله تعالى: "إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ"، وبنفس المعنى كل ما يدور من أحوال في عالم الموتى والقبور، لا شيء واجب الحدوث، بل هي خواص الأشياء التي تسير بقدر الله تعالى، وتتغير إذا أراد الله سبحانه، فهو خالق كل شيء، ومقدر كل شيء، تبارك وتعالى، ولو تأملنا آيات الله تعالى في خلقه لتكشفت لنا من الأسرار والحكم ما لا حصر له، وكذلك آيات الموت وخفاياه.

الموت وفقه الحياة

نريد أن نتعلم من الموت فقه الحياة، والمراد بفقه الحياة أن نتفكر في ملكوت الله تعالى ولا نحيا كالسائمة، بغير تعقل ولا تدبر، وقد خصصت الموت بأنه المعلم نظرا لما يجمعه من آيات وعجائب غفل الناس عنها تماما، ولو عقلوها لأدركوا كثيرا من الحكم التي تعينهم على القيام برسالتهم، المتمثلة في عبادة الخالق سبحانه حق عبادته، على خير وجه، وهذه هي ثمرة فقه الحياة، أو بتعبير أدق نتعلم فقه العبودية والعبادة، والذي من أجلها خلقنا الله، أو خلق الحياة الأرضية، ليتمايز الناس عند ربهم، فإن الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية، {وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[1].

فإذا كان لا مناص من العبور عن طريق القبور وصولا إلى الحياة الآخرة، هذا المجهول الذي لا نعرف عن حقيقته شيئا، إلا ما أخبرنا عنه الشرع الحنيف، وأن بداية هذا المجهول إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ــ والعياذ بالله ــ فقد توجب علينا أن نأخذ بالأسباب التي تجنبنا ما نخاف ونحاذر، وتبلغنا ما نحب ونرجو، فإن الإنسان ضعيف أمام المجهول الذي لا يملك حياله شيئا، فكان حقا عليه أن يغزو المجهول الذي سخره الله له، عسى أن يكون سبيلا إلى التهيؤ للمجهول الذي لم يسخره الله له، وهذا يتطلب الأخذ بأسباب اكتشاف المجهول المسخر لنا

١ سورة العنكبوت: ٦٤.

{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[1]، والعلم بهذا المجهول واكتشافه إن لم يكن لتيسير الحياة، وتجنب شدائدها، فإنه الطريق الموصل إلى التعرف على آيات الله تعالى، وامتثالا لأمره سبحانه: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[2].

إن حركة الأشياء في الكون ــ على الرغم من دقتها وانضباطها ــ لا تسير على وجه الرتابة والجمود، بل كثيرا ما يحدث تغير "في إطار المنظومة الدقيقة المحكمة"، كأن تتغير حركة الرياح ونزول المطر، وكذلك عمليات التصحر للأراضي وانتقال شواطيء البحار والمحيطات، وما يترتب عليه من ابتلاع مساحات كبيرة من اليابسة، وغير ذلك مما يطلق عليه كوارث أرضية، كل هذا يؤكد أن الخالق سبحانه لم يترك عباده رهنا لما يريدون ويرغبون، بل أجبرهم على البحث والمعرفة، وحتى يتحقق فيهم قوله عز وجل {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}[3]، وهكذا تلجئهم الحاجة إلى الوصول إلى مراد الله تعالى، شاءوا أو أبوا.

ولو تدبرنا هذا المعنى لتأكدنا أن هذه الحاجة الملجئة لها حكمة جليلة، لأن الخالق سبحانه لم يخلق الحياة عبثا، ولو انصرف الزهاد والعباد إلى الترهبن والعزوف عن الدنيا لما كان لبديع صنعته في الكون أثر في الحياة،

١ سورة الجاثية: ١٣.

٢ سورة يونس: ١٠١.

٣ سورة فصلت: ٥٣.

ولكن الخالق ــ عز وجل ــ يحب أن تظهر عظمته في صنعته بين خلقه، ولهذا وجه الناس إليها، ونبه ــ جل في علاه ــ على أن هذا هو الطريق الموصل إلى خشيته {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[1]، **والخشية درجة أعلى من الطاعة ومطلق العبادة**، لأن الخشية الحقيقية لا تكون إلا بالعلم والوصول إلى تدبر محكم صنعته، وعظمة خلقه سبحانه، ولهذا ذُكرت الخشية في سياق آيات مادية ملموسة حيث قال سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[2].

إن الظن بأن لفظ العلماء في الآية يقصد به أهل الشريعة والعبادة والزهد والورع ظنٌ مستبعد، لأن سياق الآية يأباه، ولهذا يحمل اللفظ على مطلق أهل العلم، الذين برعوا في مناحي الحياة، حتى ولو كانوا من أهل الكفر، ويكون معنى الآية أن هؤلاء أحرى وأحق بخشية الله تعالى لو كانوا مؤمنين، ولعل مما يساعد على هذا الفهم أن كثيرا من أهل الكفر سارعوا إلى الإيمان بالله عز وجل عندما تكشفت لهم آية من آيات الله تعالى في الخلق، وبخاصة التي تحدث عنها القرآن الكريم، وليس هذا مجال حكاية أخبار هؤلاء العلماء، وذكر كيفية إسلامهم، ولكن المقصود أن العلم ـ كل العلم ــ موصل إلى خشية الله والإيمان به، وليس علوم الشريعة وحدها.

---

١ سورة فاطر: ٢٨.

٢ سورة فاطر: ٢٧، ٢٨.

ونظرا لأن التفاسير التي اطلعتُ عليها تشير إلى أن المقصود بالعلماء هم أهل الطاعة والإيمان، فيمكن أن نقول إن الالتزام بما جاءت به التفاسير في هذا الباب ليس واجبا، بل إن فهم الآية يدخل في باب العظة والاعتبار، والذي يتسع ليشمل كل فهم مقبول، لا يعود على النص بالإبطال، حتى ولو كان هذا الفهم زائدا عما جاء به الأولون، وليس باب العقيدة والأحكام الذي يحرم فيه الخروج عن أقوال السابقين"[1].

ومع هذا لو التزمنا بما جاءت به التفاسير فيمكن أن يحمل لفظ العلماء على أهل الإيمان، على أن الأحق بالخشية هم أهل العلم منهم، العلم كل العلم وليس علوم الشريعة فقط، بل كل علوم الحياة مادية وشرعية، والذي يقتضي بالضرورة أن يمتلك الإنسان من مقومات الحياة ما يكفل له القيام بمهام الطاعة والعبادة على خير وجه، دون أن يكون مرهونا بإرادة أحد، وهذا لا يكون إلا بامتلاك مختلف العناصر المادية التي تهيء له تحقيق هذا المطلب، وحتى لا يدهمه مجهول الدنيا فيحول بينه وبين الطاعة والعبادة، وما أكثر المآسي والنكبات التي ابتلي بها أهل الإسلام فحالت بينهم وبين مقومات العبادة الحق، بسبب عجزهم عن تجنب آثارها المدمرة، ويكفي أن نقارن ــ مثلا ــ بين تصرف أهل اليابان مع الزلازل وبين تصرف غيرهم من دول المسلمين لنرى مدى التقدم الذي وصل إليه اليابانيون غير المسلمين، في فهم حقائق الأشياء، ومدى جهل المسلمين وعجزهم في نفس الأمر، فقد استطاع غيرُ المسلمين التقليل إلى درجة كبيرة من الآثار المفجعة للزلازل بينما عانى المسلمون منها ما لا طاقة لهم به، وما ذلك إلا

١ وقد بينت هذا المعنى في القاعدة الأصولية التي ذكرتها في البداية.

لأن غير المسلمين لم يكلّوا ولم يملّوا في البحث عن أسرار المادة، واكتشاف المجهول الذي يحيط بهم من كل مكان، وقد يحمل المجهول من الأخطار ما لا حصر له، ولو أمكن التنبه له لتم تلافي الكثير من أضراره.

والذي أعنيه هو أن الموت أو القبر يحمل من الأسرار والخفايا ما لو تعلمنا أن نفهمه لأصبح ذلك لنا ديدنًا"[1] في كل الأمور، وأما كون الموت طريقا لكشف الغيبيات الممكنة فلأنه لا يكاد يعدله شيء آخر في حياة الناس، يشاهدونه ويلمسونه، ومع هذا يحمل من الغيبيات ما يمكن إدراكه وما لا يمكن إدراكه، ولو تعلم الناس أن يتفكروا في أمور حياتهم المعتادة لتوقفوا كثيرا أمام عالم القبور، وبحثوا عن كشف أسراره، ولعلي لا أجانب الصواب وأنا أفهم أن الأحياء الذين لا يتفكرون في أسرار الخلق، وأسرار الكون لا يختلفون كثيرا عن الأموات، الذين فقدوا كل مقومات البحث والتفكر {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[2]، فالأموات في الآية ليس مقصودا بهم أصحاب القبور، بل هم الأحياء الذين لا يهتدون، هؤلاء الذين تمر بهم آيات الله فلا يلتفتون إليها، ولأن الخالق سبحانه عندما يخبرنا بعدم استواء الأحياء ولا الأموات، فلابد أن يحمل هذا الخبر أكثر من الأمر المشاهد الذي يدركه الناس جميعا، لأن عدم الاستواء معلوم بين الميت والحي، فيكون النفي هنا تحصيل حاصل وهو، وتحصيل الحاصل لا يليق بكلام الخالق سبحانه، ومن هنا كان معنى لفظ الأموات في الآية خاصا بالأحياء الأموات،

١ معجم اللغة العربية المعاصرة، دَيْدَن [مفرد]: عادَةٌ ودَأْبٌ "من دَيْدَنه أن يفعل كذا".

٢ سورة فاطر: ٢٢.

وهؤلاء لا يسمعون كما لا يسمع من القبور، وفي هذا المعنى **يقول الإمام الطبري**: (وقوله "وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ" يقول: وما يستوي الأحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله، ومعرفة تنزيل الله، والأموات القلوب لغلبة الكفر عليها، حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال، وكل هذه أمثال ضربها الله للمؤمن والإيمان والكافر والكفر)[1].

ولو أمعنا النظر في معنى الآية لوجدنا أنها تثبت لنا من معاني الأشياء ما ليس معهودا لدينا، فالمعهود لدينا هو الموت الذي يعرفه البشر، بينما الآية تبين أن الأموات ليسوا هم من القبور فقط، بل قد يكون الموت متعلقا أيضا بالأحياء، الذين يتحركون ويدركون، والحمل على المجاز هنا"[2] سببه العجز عن إدراك الخصائص المادية التي عليها أهل الكفر والضلال"[3]،

---

١ تفسير الطبري.

٢ الحمل على المجاز أننا نشبه الأحياء الذين لا يتعظون ولا يتفكرون في آيات الله في الخلق بأنهم كالأموات من حيث عدم الفهم أو العظة والاعتبار، ولكن هذا المعنى المجازي ليس بالضرورة أن يكون هو المعنى الصحيح فقط، بل قد يكون المعنى أن الله عز وجل يعطل بعض أجهزتهم فتصبح كأجهزة الميت من جهة الحقيقة في أنها فقد القدرة على القيام بوظائفها من التدبر والتعقل والفهم، وهذه أمور غير ممتنعة شرعا، وإن كان إثباتها علما صعبا أو غير ممكن، والله أعلى وأعلم.

٣ كما في قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الملك: ٢٢]، وكما يشير إليه قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٦: ١٨]، وصفهم الله بأنهم صم بكم عمي، مع أن حواسهم كلها مكتملة وسليمة ظاهريا، والله أعلى وأعلم.

والتي قد تحمل كثيرا من خصائص الموتى على وجه الحقيقة وليس على جهة المجاز، بمعنى: أن الكفر قد يكون سببا حقيقيا في تغير الخصائص الذاتية لأجهزة الجسم، بحيث لا تكون هي هي نفسها نفس أجهزة جسم أهل الإيمان، وإن كانت الصورة واحدة، ولكن الخصائص مختلفة، والله أعلم بمراده.

والآية ـــ كذلك ـــ تجمع بين هؤلاء الذين غووا وضلوا، وبين عدم سماع من في القبور "وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ"، والعلاقة تشبيهية متبادرة إلى الذهن بأن من لا يهتدي يكون شبيها بمن لا يسمع، أي شبيها بالموتى، فكأنه حين يسمع داعي الله لا يسمعه، ولكن أليس من الممكن أن تحمل الآية من المعاني أكثر مما نظن، فيكون المقصود أن الموتى لا يسمعون ليس لأنهم لا يسمعون مطلقا، ولكن لأن آلة السماع لديهم قد اختلفت فلم تصبح قادرة على سماع قول البشر، ولكن الله عز وجل قد أكسبها خاصية أخرى وهي سماع خاص ليس كسماع البشر، وهذا المعنى ليس مجازيا بل هو معنى حقيقي، وبالمثل فأذُن الضال أو الكافر قد سلبها الله خاصية سماع قول الرسل أو الدعاة إلى الله، فكأنهم يسمعون ولكن في الحقيقة هم لا يسمعون، بل لعل الكلام يصل إلى آذانهم بصورة غير مفهومة، وبالتالي يكون السماع كعدمه، مصداقا لقوله تعالي: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[1]، فلا مجاز في هذا بل هي حقائق غابت عنا عندما جهلنا خصائص الأشياء على وجه الحقيقة.

١ سورة القصص: ٥٦.

ويمكن أن نقول إن أجهزة الجسم تفقد خواصها المعروفة لدينا، عند الكفار والضلال، وتصبح ذات خواص أخرى، حتى إذا سمعوا أصبح سماعهم مختلفا بالفعل، تماما كمن يسمع لغة لا يفهمها، وهذا الفهم معناه أنه قد أصبح ميئوسا منهم تماما، بسبب اختلاف اللغة حقيقة، وليس مجازا {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[1].

إن فهم هذه الحقائق على وجهها الصحيح يساعد أهل الطاعة والإيمان في مواجهة الخصوم وبخاصة عند استعراض الأدلة البينة، والتي لا تجد لديهم أي صدى، حتى يكاد يتشكك أهل الطاعة تعجبا من أن يغيب فهم الأدلة الواضحة عن أصحاب العقول الذكية والأفكار المبتكرة، ولكن إذا ما استوعبوا أمر التوفيق والهداية الذي يشمل به الخالق أهل طاعته، ويسلبه من أهل المعصية والضلال زال عنهم العجب واستقر مقامهم على الطاعة والإيمان في يقين وثبات.

وعلى نفس المنوال أيضا يكون نفي إسماع الرسول ﷺ لمن في القبور هو نفي جانب الإسماع البشري، والذي يشترك فيه الرسول ﷺ وغيره من الخلق، بينما الموتى يسمعونه ﷺ، بصفة الرسالة، التي لا يشاركه فيها أحدٌ من الخلق أجمعين، ففي يوم بدر كما في الصحيح عَنْ سيدنا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ: «يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ

١ سورة الأعراف: ١٧٩.

رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا» ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ"[1].

وهكذا في عالم القبور يرينا الموت من خصائص الأشياء ما لا يستقيم الفهم الصحيح لكثير من آيات الله في الخلق إلا به، ولعلنا لا نرى مثل هذه الإشارات والدلائل والعلامات، التي تدل على وجود الجانب غير المدرك ــ أو الغيبي ــ في كل ما حولنا من أشياء، كما يفصح عنه عالم القبور.

١ صحيح مسلم.

الأخذ بالأسباب وكشف المجهول

الأخذ بالأسباب يعتبر ركنا من أركان العبودية، حيث أمرنا الخالق سبحانه بأن نقدم السبب وندعوا الله، {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}[1]، **يقول الإمام القرطبي**: ومعنى (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها) أَيْ جَعَلَكُمْ عُمَّارَهَا وَسُكَّانَهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَمَعْنَى" اسْتَعْمَرَكُمْ" أَعْمَرَكُمْ مِنْ قَوْلِهِ: أَعْمَرَ فُلَانٌ فُلَانًا دَارَهُ، فَهِيَ لَهُ عُمْرَى. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَسْكَنَكُمْ فِيهَا، وَعَلَى هَذَيْنَ الْقَوْلَيْنِ تَكُونُ اسْتَفْعَلَ بِمَعْنَى أَفْعَلَ، مِثْلَ اسْتَجَابَ بِمَعْنَى أَجَابَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَطَالَ أَعْمَارَكُمْ، وَكَانَتْ أَعْمَارُهُمْ مِنْ ثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى أَلْفٍ. ابْنُ عَبَّاسٍ: أَعَاشَكُمْ فِيهَا، زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: أَمَرَكُمْ بِعِمَارَةِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِيهَا مِنْ بِنَاءِ مَسَاكِنَ، وَغَرْسِ أَشْجَارٍ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى أَلْهَمَكُمْ عِمَارَتَهَا مِنَ الْحَرْثِ وَالْغَرْسِ وَحَفْرِ الْأَنْهَارِ وَغَيْرِهَا. الثالثة- قال ابن عربي قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ: الِاسْتِعْمَارُ طَلَبُ الْعِمَارَةِ، وَالطَّلَبُ الْمُطْلَقُ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْوُجُوبِ)[2]، ولعل هذه الآية من أهم الأدلة المباشرة ـــ الظاهرة البينة ـــ على وجوب الأخذ بالأسباب.

ومن الأخذ بالأسباب أن نبحث عن وسائل كشف ما خفي عنا من أمور حياتنا، سواء أكانت فيما تحويه الأرض التي نعيش علسها، أو الجو الذي

١ سورة هود: الآية ٦١.

٢ تفسير القرطبي (٩/ ٥٦)

يحيط بنا، ومن هنا تأتي الأهمية الكبرى لمعرفة ما يعنيه الموت، وما يحويه القبور.

وليس بالضرورة أن يكون ما يرشدنا إليه الموت وعالم القبور مقتصرا على ما يدور في القبر، أو ما يتعلق بالموتى فيه، بل إن آيات الله تعالى كل متكامل، يؤيد بعضها بعضا، ويدل بعضها على بعض، ولعل البحث في ثنايا القبر، وما يحدث للموتى يقودنا إلى مكان آخر بعيد، ولكن لا غنى للفهم والحياة عنه.

فكما يجمع القبر بين الظلمة والنور"[1]، وبين الرحمة والعذاب، كذلك يمكنه أن يكون جامعا بين الموت والحياة، وذلك إذا ما أحسنَّا التدبر والفهم على الوجه الصحيح.

أليس من الممكن أن يكون البحث عن أسباب تحلل الجسد ـ على سبيل المثال ـ سببا في الوصول إلى علاج مرض ما، يصيب الإنسان في حياته، أو ما شابه ذلك؟

فقد أعلَمَنا القبرُ من خصائص الأشياء ما لم يكن يتخيله البشر"[1]، فكذلك لعل منها ما قد تتوقف حياة الخلق عليه، والتي ينكشف لهم منها

١ ويشهد لذلك ما ورد عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما، قَالَ: "مَنْ قَالَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَإِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ: اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا عَدَدَ الشَّفْعِ، وَالْوِتْرِ، وَكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الطَّيِّبَاتِ الْمُبَارَكَاتِ، ثَلَاثًا، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِثْلُ ذَلِكَ، كُنَّ لَهُ فِي قَبْرِهِ نُورًا، وَعَلَى الْجِسْرِ نُورًا، وَعَلَى الصِّرَاطِ نُورًا حَتَّى يُدْخِلَنَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ" مصنف ابن أبي شيبة، ومن المعلوم أن من النور ما لا تراه الأعين، ومع هذا فهو موجود.

بقدر ما يأذن الله تعالى به، تماما كما يهدي سبحانه من يشاء إلى طاعته، وهو أعلم بأهل الهداية، كذلك تنكشف الأسرار الخفية، من خصائص المادة، لمن أخذ بالأسباب، التي أقامها الله تعالى للوصول إليها، وتحقيقا لمراده سبحانه، أن أمور الدنيا لا تطلب بالدعاء وفقط، بل بالأسباب الدنيوية، وعلى سبيل المثال: في المختبرات والتفاعلات الكيماوية لابد من معرفة خصائص المادة، وأثر اختلاط كل منها بالأخرى إلى غير ذلك، وكل هذا علم لابد فيه من التجربة والاجتهاد، والدعاء يكون طلبا للتوفيق، وليس بديلا عن الكد والجهد، والمثابرة والتعلم، والتوفيق ليس قاصرا على أهل الطاعة، بل دعاء أهل الطاعة يُنال به التوفيق في الوصول إلى الغايات، ولكن عند تقاعس أهل الطاعة يوفق الله أهل الكفر، الذين يكدون ويجتهدون، وذلك لأن الله تعالى قد وعد أن يكشف لخلقه من دلائل وجوده وعظمته ما يعينهم على الإيمان والطاعة، ولو قصر هذا على أهل طاعته لما ظهرت له آية، في ظل هذا التخلف والتراجع عن ركب العلوم.

وكذلك لو كان التوفيق حكرا على أهل الإيمان، لكان ظلما لأهل الكفر، لأن تكشف الآيات على أيدي أهل الكفر سبيل محقق لإقامة الحجة عليهم، وكذلك معين وسند لهم على الإيمان والطاعة، ولو حجبه الله عنهم

١ ومن ذلك التفاوت الكبير بين ميت وميت آخر إن كانا في نفس مكان الدفن، بمعنى تشابه المقبرتين تماما، ولكن ترى أحد الجسدين له رائحة زكيه، يقسم من حضرها أنها حقيقة موجودة، بينما الجثة الأخرى لها رائحة كريهة يقسم من حضرها أنها موجودة، وغير ذلك مما يحى عن أصحاب القبور كثير وكثير، مع أن مركبات الجسد واحدة.

لكان ظلما لهم، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[1]، ولتستقيم أمور الخلق كما يريد سبحانه، ولتقوم الحجة على الذين لا يهتدون.

إن مسألة الجاذبية، وكذا مسألة المد والجزر"[2] تعتبر من أهم المسائل التي يتوقف عليها حياة الناس في بعض الأماكن، بسبب ابتلاع مياه البحر للقرى المتاخمة له، ولعل الإنسان لو اهتدى إلى بعض أسرار هذه الظواهر لأمكنه تجنب ذلك.

ويمكن أن نفرق في هذا الشأن بين مفهوم الهداية للإيمان، وطاعة الخالق سبحانه، وبين الهداية لكشف أسرار الكون، ومغاليق الحياة، **فهداية الإيمان** لا تتحقق إلا بتوفيق الله تعالى وعنايته لأهل طاعته فقط، بينما **هداية المعرفة** وكشف الأسرار يوفق الله لها جميع الخلق بقدر ما يبذلون من جهد ويأخذون من أسباب.

ولأن نجاح الإنسان في إماطة السر عن مجهول ما يحمل في ثناياه ما يحمله الرسل والدعاة من الوسائل الموصلة إلى طاعة الله وعبادته، كما يشير إليه قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ

---

١ سورة فصلت: ٤٦.

٢ وكيفيَّة المد والجزر: أنه إذا بلغ القمرُ مشرقًا من مشارق البحر، ابتدأ البحرُ بالمَدِّ، ولا يزالُ كذلك إلى أن يصيرَ القمرُ إلى وسط سماء ذلك الموضع، فعند ذلك ينتهي [المدُّ] منتهاه، فإذا زال القمرُ من مغرب ذلك الموضع ابتدأ المدُّ مرةً أخرى، ولا يزالُ زائدًا إلى أن يصل القمرُ إلى وتد الأرض، فحينئذٍ ينتهي المدُّ منتهاه، ثمَّ يبتدئ الجَزْرُ ثانيًا، ويرجعُ الماءُ كما كان، مفتاح دار السعادة لابن القيم (٣/ ١٢٨٤).

عَلَى اللهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1]

والمقصود بالنظر في كيفية بدأ الخلق أن يتفكر من ينظر إلى مخلوقات كيف كانت ووجدت بعد أن لم تكن موجودة، وكيف اخضرت الأرض بعد أن كانت هامدة، وغير ذلك مما تشير إليه مخلوقات الله تعالى، فكأن النظر هو المادة الخام التي تتكون في العقل، ليقوم العقل ببنائها وصناعتها بالتفكر ووضع كل شيء في موضعه الذي يجب أن يكون فيه، ليكتمل المطلوب والذي يؤدي بالضرورة إلأى الإيمان بأن هذه المقدمات والنتائج المترتبة عليها لا يمكن أن تتواجد إلا إذا كان لها خالق يمسك بزمامها ويوجها كيف يشاء، فسبحان الله رب العالمين، (قال **المحقق سعد الدين التفتازاني** في شرح المقاصد: وكثيرا ما يقتصر في تفسير النظر على بعض أجزائه أو لوازمه، اكتفاء بما يفيد امتيازه، أو اصطلاحا على ذلك فيقال هو حركة الذهن إلى مبادئ المطلوب، أو حركته عن المبادئ إلى المطالب، أو ترتيب المعلومات للتأدي إلى مجهول)[2].

وجميل في هذا التعريف أن يشير إلى أن المعلومات قد تؤدي ترتيب مبادئها إلى نتيجة كانت مجهولة لدينا، وهذا ما نراه في الحياة كثيرا، فسبحان من يعلم الغيب سبحانه وتعالى علم اليقين، وكما يقول المفسرون: (لو أن النظر معناه تقليب الحدقة في السماء لشارك الحيوان الإنسان في ذلك، لكن

١ سورة العنكبوت: ١٩، ٢٠.

٢ التقرير والتحبير للإمام ابن أمير حاج.

النظر هو ترتيب المعلومات بحيث توصلنا للنتائج المطلوبة)[1]، والمعنى أن الآية لو كان المقصود منها هو مجرد النظر، دون تفكر أو بناء النتائج على مقدماتها، لاشترك كل ذي عين في هذا المعنى، سواء أكان حشرة أم طيرا أم حيوانا أم إنسانا، ولكننا نعلم أن هذا خطاب للإنسان دون باقي المخلوقات المذكرة، ومن هنا تأكدنا أنه لابد أن يكون نظرا له أثر خاص، وهو كما بينا ترتيب النتائج على مقدماتها، هذه النتائج تتلخص في أن الخالق سبحانه هو المعبود الأعظم ولا معبود بحق سواه.

وإذا كان الرسل صلوات الله عليهم قد وصلوا إلى عقول الناس وقلوبهم بالمعجزات التي أيدهم الله بها، فكذلك يمكن أن يحمل كشف الغيب على النحو الذي ينفع الناس معجزة بوجه ما تدل على وجود الخالق سبحانه ووجوب طاعته، ولهذا لو اقتصر توفيق الله في كشف هذه الغيوب على أهل الطاعة لكان العاصي معذورا في معصيته، لكونه لم يطلع على دلائل وجود الخالق وعظمته، ولكن الله قطع الأعذار، بأن يسر أمور الدنيا للناس جميعا، بشرط الأخذ بأسبابها.

ومازلنا نرى آية الموت ظاهرة جلية أيضا في هذا الشأن ــ أي أمور الدنيا ــ وكأن الخالق سبحانه ــ وهو أعلم بمراده ـ يجعلنا دوما نستحضر الموت ليس لنموت ولكن لنتفكر ونعيش على النحو الذي يرضيه سبحانه، ففي قوله عز وجل: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ}[2]، نجد وصف الأرض بالميتة، مع أنه عز وجل وصفها في موضع

١ نقل هذا القول عن الإمام القزويني، ولكن لم أهتد إلى مرجعه.

٢ سورة يس: ٣٣.

آخر بصفتها التي نعرفها حيث قال سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}[1]، (الْأَرْضِ الجُرُز الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَهِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سَوْدَاءُ قَحْلَةٌ)[2].

وفي الآيتين نرى قوله تعالى: "وَآيَةٌ لَهُمُ"، وقوله: "أَوَلَمْ يَرَوْا"، لندرك أن الوقوف أمام المعاني المتبادرة للجميع هو فعل العامة الذين لا ترتقي بهم حياة، بل لابد من إدراك دلائل كون هذا الشيء آية، ولأن الآية شيء كبير جليل وليس مجرد ما تراه العين، كذلك التنبيه بقوله: "أَوَلَمْ يَرَوْا" على أهمية المخبر عنه وعظمه، مع أنه من جهة الواقع الكل يرى، وعلى هذا فلابد أن يكون المعنى أنها رؤية غير هذه الرؤية العينية المجردة، إنها رؤية التدقيق والتفكر، وهكذا يكون وصف الأرض بالميتة له معنى أعمق من كونها يابسة جرداء، وكأن المعنى ــ والله أعلم بمراده ــ أن هذه الأرض ميتة تحمل من الأسرار والمجهول الشيء الكثير، كما يحمل الموت الكثير من الأسرار، وأن الأمر لا يتوقف على هذه القشرة الخارجية الجرداء القاحلة، والتي تتعلق حياتهم بحياتها، وكأن حياتها بعد الموت، بعث لها ليأكلوا منها "وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ"، هل تكون الآية دلالة على أن التفكر في آيات الله بعث بعد موات الأحياء الذين لا يتفكرون، لتكون هي الحياة الدنيوية الحق، التي بها يحيون، كما أنهم بعد حياة الأرض يأكلون فيحيون.

---

١ سورة السجدة: ٢٧.

٢ تفسير ابن كثير.

أفلا تكون الآية تنبيها على ضرورة سبر أغوار الأرض، وكشف خباياها ليدركوا حكمة الله تعالى في خلقه، وتستقيم حياتهم، وإلا أصبحت ميتة لا قدرة لهم على الأكل من خيرها.

اللفظ القرآني ودلالته على المجهول

اللفظ القرآني هو كلام الخالق سبحانه، وقد صيغ هذا اللفظ ليكون حجة على العالمين جميعا، بعد انقطاع الوحي بموت رسول الله ﷺ، ولهذا فهو لفظ معجز، وليس معنى الإعجاز فيه أنه غير مفهوم المعنى، بل على العكس من ذلك، فإنه يمثل البيان الساطع والفصاحة في أعلى درجاتها، فهو الكمال المطلق الذي لا يدانيه كما قط، {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[1].

ومع هذا البيان والظهور والفصاحة، إلا أن اللفظ القرآني، وأقصد التركيب اللغوي أيضا، عرف من خصائص إعجائزه، أنه يحمل من المعاني ما يعجز عن مثله كلام البشر، فمع كونه أخصر التراكيب اللغوية، إلا أنه يحمل المعاني التي لا يستطيع البشر حصرها إلا في أضعاف اضعاف تراكيب اللفظ القرآني، ومن هنا كان من يهدف إلى فهم اللفظ القرآني لابد له من الاجتهاد والبحث في نصوص القرآن كله وكلام الرسول ﷺ وتفسير الصحابة والتابعين، وأهل العلم من بعدهم لهذا اللفظ، حتى يفهم على وجه صحيح، أو تعرف الأصول والقواعد الضابطة للعقول لفهم اللفظ القرآني على النحو الصحيح، ومن هذه الأصول والقواعد لزوم الاستعانة

١ سورة الإسراء: الآية ٨٨.

بالله، والتوجه إليه سبحانه بالدعاء، أن يمن بالفهم الصحيح لمن اجتهد في طلب هذا الفهم، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}[1]

إن القصد الذي نهدف إليه من بحثنا هذا أن تنفتح الأبواب، لكل معاني الفهم، والتي يمكن أن تقود بعد ذلك إلى ما هو أرقى وأفضل كثيرا مما نطمع ونأمل، وليس بالضرورة أن يكون فهمنا هو الصواب، فلست أجزم بذلك، ولكن الذي أتأكد منه أن الطريق إلى الفهم الصحيح يقتضي التوقف كثيرا أمام ألفاظ القرآن الكريم، لنصل إلى المعنى الصحيح أو الفهم الشامل لمدلولها، كما في قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ}[2] فلفظ آيات يدل على بحر من المعرفة، لم يصلنا منه إلا أقل القليل، ولن يأتي الفهم دفعة واحدة، ولكن بالصبر والمثابرة، والجد والاجتهاد، نطمع أن يمن الله علينا بفضله وبعظيم كرمه سبحانه.

فآيات الأرض تشمل الجو المحيط بها، وتشمل ــ أيضا ــ قشرة الأرض وباطنها، وما يتعلق بكل ذلك، وهذه الآيات كلما سعى الإنسان لإدراكها، وفتح له منها بابا للمعرفة كلما ازداد وإيمانا وإذعانا ــ إن كان من أهل الإيمان ــ ولعل منها ما يكون سببا في هداية أهل الضلال ونجاتهم من العذاب، حيث يتأكدون أن مثل هذه الآيات لا يمكن أن يملك أسرارها إلا

١ سورة القمر: الآيات ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

٢ سورة الذاريات: ٢٠.

خالق الخلق سبحانه، وها هو اللفظ القرآني يذكر من هذه الأسرار ما يؤكد أنه يملك مفاتيح خباياها، وخبايا كل شيء"[1].

إن كثيرا من الاكتشافات العلمية لم يكن أصحابها يطلبونها قصدا، بل الكثير منها ينكشف قَدَرًا، ولكن فقط عند الباحث الذي يمكنه إدراك حقيقة ما يظهر له، وهذا لا يتاح إلا بالكد والمثابرة، وتنمية ملكة التفكر والتدبر، التي تؤهل صاحبها للوصول إلى كشف المجهول، ومازلت أرى أن عالم القبور من أهم وسائل تنمية مهارة الفكر والإبداع، بما يحويه من خفايا وأسرار، وفي نفس الوقت لكونها لا تغيب عن العين لحظة.

ولقد استوقفتني هذه الآية الكريمة {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[2]، لأنها ــ بطريق غير مباشر ــ قد ربطت بين الحياة والموت عن طريق الرزق، بقوله تعالى: "وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"[3]، بعد قوله تعالى: "وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ"، وكأن الآية تشير إلى أن رزق الدنيا لا حياة بدونه، والذي لابد له من السعي والحركة، ولكن لا تنسوا أن مرجعكم إلى ربكم حيث لا حيلة لكم في الرزق، ولا نصيب

١ ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١]، ولولا أن آيات القرآن الكريم قد حوت من حقائق الكون وأسراره ما لا يمكن حصره، لما كان للنظر في ملكوت السموات والأرض أي دلالة على أن القرآن الكريم هو كلام الخالق سبحانه.

٢ سورة الملك: ١٥.

٣ (يَعْنِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُكْثُكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَأَكْلُكُمْ مِنْ رِزْقِ اللهِ مُكْثَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَرْجِعَهُ إِلَى اللهِ، وَأَكْلَ مَنْ يَتَيَقَّنُ أَنَّ مَصِيرَهُ إِلَى اللهِ) تفسير الرازي.

لكم في أخذه، فاعملوا لهذا اليوم، فأنتم اليوم قادرون على استجلاب الرزق، وبعد الموت لا رزق، إلا ما قدمتوه لأنفسكم من أجل ذلك اليوم، والله أعلى وأعلم.

يقول **الشيخ الشنقيطي**، صاحب تفسير أضواء البيان: (فَقَوْلُهُ: وَإِلَيْهِ النُّشُورُ بَعْدَ الْمَشْيِ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ، وَتَطَلُّبِ الرِّزْقِ وَمَا يَتَضَمَّنُ مِنَ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي مُسَبَّبَاتِ الْأَسْبَابِ وَتَسْخِيرِ اللهِ لَهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ بَعْدَ ذِكْرِ: خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا أَيِ: الْأَصْنَافَ، وَتَسْخِيرُ الْفُلْكِ، وَالْأَنْعَامِ، وَالْبَحْرِ وَالْبَرِّ فِيهِ ضِمْنًا إِثْبَاتُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ، فَيَكُونُ الْمَشْيُ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ، وَاسْتِخْدَامُ مَنَاكِبِهَا، وَاسْتِغْلَالُ ثَرَوَاتِهَا وَالِانْتِفَاعُ مِنْ خَيْرَاتِهَا لَا لِطَلَبِ الرِّزْقِ وَحْدَهُ، وَإِلَّا لَكَانَ يُمْكِنُ سَوْقُهُ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنْ لِلْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ أَوَّلًا، وَلِلنَّظَرِ فِي الْمُسَبَّبَاتِ وَالْعِبْرَةِ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَالتَّزَوُّدِ لِمَا بَعْدَ الْمَمَاتِ)[1].

من جانب آخر: لو نظرنا إلى المعنى الدقيق لقوله تعالى: "لكم" و "ذلولا" لأدركنا أن هذا التذليل مقصود به أن تتكشف خبايا الأرض، وتبوح بآلائها، إذا ما أخذ الإنسان بالأسباب التي تنقاد له بها وتذل، فكأن لفظ "لكم" مقصود به أن التذليل متوقف على جهد الإنسان وعمله، وليست ذلولا بذاتها، إلا بالقدر الذي أذن به الخالق سبحانه، ولعل مما يبين هذا المعنى أن المحاصيل المختلفة لا تنبت من تلقاء نفسها، بل لابد للانسان من الاجتهاد في زراعتها ورعايتها، ويقاس على ذلك كل ما هو مطلوب من أمور الحياة المختلفة.

١ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.

ولعل فقه هذه الآية يؤكد أن إعادة النظر في فهم آيات الله المقروءة والمنظورة سيغير بالضرورة من طرق تناولنا لنصوص الشرع، وبالتالي سيغير من فهمنا لحقائق ديننا، والذي أبعدناه تماما عن أمور الحياة، واكتفينا منه بالعبادات المحضة، المتمثلة في الصلاة والصيام وما في معناها، دون أن نحقق مفهوم العبودية بالنظر في ملكوت الله {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ}[1].

فكون تذليل الأرض ناشئا عن جعل الله لها، وليس من خصائص ذاتها"[2]، يؤكد أن الأرض لا تملك من أمر نفسها شيء، كباقي المخلوقات جميعا، وبالتالي ليس كل من زرع حصد، ولا كل من حصد تساوى حصاده مع حصاد غيره، وسبب ذلك أن للأرض صفات يشترك الناس في الانتفاع بها، ولكن لها صفات لا تدين إلا لمن أذن لها الله أن تدين له، ولعل هذا المعنى وهذا البيان يشير إليه قول الحق تبارك وتعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا

---

١ سورة الجاثية: ٣.

٢ الخصائص الذاتية للأشياء ينظر إليها بنظرين: الأول: أن الأشياء لها خصائص وصفات لا تتخلف أبدا لأنها وجدت هكذا، ولم يطرأ عليها ما يغيرها، وهذه هي نظرة من ينكرون أن للكون مبدع وخالق، وبالتالي فكل شيء عندهم نتائجة ثابته، إذا كانت مقدماته واحدة.

أما النظر الثاني: فهو نظر المؤمنين بأن كل شيء في الكون مخلوق وأن خالقه هو رب الكون ومدبره، وأنه تبارك وتعالى هو الذي أعطى كل مخلوق في الكون الصفات والخصائص التي تؤهله للقيام بدوره في الحياة الذي خلقه الله من أجله، فلا يوجد في الكون كله شيء خلق عبثا، وأن للأشياء خصائص مقدورة، وخصائص غير مقدورة، فالخصائص المقدورة التي التي تتحد نتائجها إذا ما اتحدت مقدماتها، بينما غير المقدورة هي الخصائص التي يسخرها الخالق كما يشاء، ولا تخضع لإرادة أحد.

تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ}[1]، ولو كانت الخصائص ذاتية ــ بالمعنى الذي يقول به الماديون ــ لما تخلفت النتائج قط.

ومن هنا يتوجب علينا الإيمان بأن كل شيء في حياتنا هو بتقدير الله تعالى وقدره، وليس كما يقول الماديون أن الحياة مادية بحتة، ولعل هذا المفهوم يقتضي بالضرورة أن تكون في صفات الأرض وطبيعتها ما يعجز الإنسان عن تذليله، وهو ما يمكن أن يطلق عليه الخصائص غير المقدورة، ليكون ذلك دلالة وآية على أن ما ينقاد له منها ليس بسبب علمه وقدرته المطلقة"[2]، بل كما بين الخالق سبحانه إنما بسبب تذليل الله لها.

وقد تكون الزلازل والبراكين من هذا القبيل، الذي يؤكد عجز الإنسان عن التحكم في الأرض وتذليلها، إلا بالقدر الذي أذن الله فيه فقط، ليوقن أنه سيظل دوما في قبضة الله تعالى وقدرته، مهما ظن أنه بلغ في الحياة مبلغا عظيما.

---

١ سورة الواقعة: الآيات ٦٣ : ٧٣.

٢ فهو وإن كان على علم بخصائصها المقدورة، لا يعلم شيئا عن خصائها غير المقدورة، ولا طاقة له على تذليلها والتحكم فيها.

إن أي خصائص ذاتية للأشياء يمكن للبشر أن يتحكموا فيها إن أحسنوا الإحاطة بعلمها على وجه اليقين، وكانت صفة خالصة لا تعلّق لها بشيء آخر، ومثل هذه الخصائص والصفات التي يحيط الإنسان بعلمها ـــ الخصائص المقدورة ـ قليلة محدودة، حيث يقول الخالق سبحانه: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[1].

وهذا التفضيل لا يمكن للإنسان أن يلغيه، مع أن كل الخصائص المادية بين يديه واحدة، ومع هذا يعجز عن المساواة بين الثمر جميعا في الصفات، ولولا هذه الخصائص غير المقدورة، لما أعجزه شيء.

ولا يمكن إدعاء أن عجز الإنسان يرجع كله إلى سبب مادي، بل لابد من الإيمان بأن جميع الأشياء مخلوقة لله تعالى، لا يحيط بكامل أسرارها إلا هو سبحانه، وأنها كائنة ما كانت، مُسخرة لما أرادها الله تعالى له، وليست مرهونة بذاتها وصفاتها وحسب، {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}[2]، وقوله تعالى: "مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا" يبين أن الأمر ليس مرهونا بالخصائص المقدورة فقط، بل هناك خصائص، تخضع لتسخير الله وليست مذللة لعمل الإنسان.

---

١ سورة الرعد: ٤.

٢ سورة النمل: الآية ٦٠.

وعلى هذا يكون العجز عن التحكم في الزلازل والبراكين، وحركة الجبال، وغير ذلك يرجع إلى أنها ـــ والله أعلم ـــ ليست مذللة للإنسان، فمهما بلغ من علم بها لن يستطيع تذليلها، ومهما قيل من لزومها لبقاء الأرض، فليس فيه حجة لتبرير هذا العجز، لأن خصائص الأشياء لو كانت ذاتية خالصة لأمكن للإنسان التحكم فيها، وبالتالي يمكنه أن يلغي حاجة الأرض في بقائها إلى الزلازل والبراكين، وحركة الجبال، وما يدور في هذا المعنى، {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[1].

طبعا أنا لا أقصد الجزم بشيء بعينه مما ذكرته ـ عن العجز عن التحكم في الزلازل والبراكين وحركة الجبال ـــ لأنني لست من أهل هذا العلم، ولكن الذي أجزم به يقينا هو المعنى الذي يعنيه، ألا وهو عجز الإنسان مهما بلغ عن الإحاطة بكل أسرار الأرض على وجه اليقين، بل سيعجز دوما عن شيء ما أو أكثر، إن لم يكن فيما ذكرته من أمثلة، فسوف يوجد ولابد في غير هذا المذكور، والذي لا أعلمه لقصور علمي، وليس لأنه غير موجود.

إن آيات الله تعالى في خلقه، التي تظهر تباعا والتي لا تتوالى في كل زمان لا يمكن أن تنتهي أبدا، مهما تقدمت العلوم وارتقت الأفهام، ومهما تقدم الزمان وتغير المكان، وهذا المعنى، أي عدم القدرة على التحكم في الأرض

١ سورة يونس: ٢٤.

بزلازلها وبراكينها، وحركة جبالها، أو غيرها مما لا أعلمه، هو واحد من الآيات التي تحدى الله بها الخلق، حيث قال سبحانه: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}[1]، ولو أمكنه التحكم التام في الأرض لانتهى ما يمكن أن يراه من آيات فيها، وهي جزء من الآفاق التي لن تنقطع آياتها أبدا، ولهذا لا يمكنه الإحاطة التامة بها، وبخصائصها الذاتية أبدا، وذكر النفس والآفاق يعنى أنه لن يوجد شيء مطلقا مما خلقه الله سيحيط الإنسان بعلمه علما تاما أبدا، لأن النفس تشير إلى الإنسان، والآفاق تشير إلى كل ما سوى الإنسان من مخلوقات وأشياء {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ}[2].

ولأنه هو الخالق سبحانه الذي لا شريك ولا ند له، فإن التحدي قائم إلى أن تقوم الساعة، ولن يحيط الإنسان أبدا بعلم صفات الأشياء وخصائصها، إلا بما أذن الله به فقط، مهما ظن أنه قد أحاط بدقائقها وفهمها، حتى ولو كان في خاصة نفسه وذاته هو {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[3].

ومن عجيب أمر الإنسان أنه يرى بعينيه كل يوم، بل كل ساعة ما يدل على أن الخالق سبحانه واحد لا شريك له، ولا ند له، فهذا هو جسد الإنسان سليم من الظاهر لا عوج فيه، ومع هذا ميت لا يملك له الطب شيئا، فلقد سلبه الله الحياة، أو نزع منه الروح، وهي أمر غيبي لا طاقة للبشر بإدراكه، ولو كانت تدرك بالعلم لما مات أحد، وبخاصة إذا كان كل عضو

١ سورة فصلت: ٥٣.

٢ سورة هود: ١٢٣.

٣ سورة الذاريات: ٢١.

من أعضاء الجسد سليما من الناحية المادية، ولكن مع هذا لا حياة فيه، أليس هذا دليلا على عظمة الخالق سبحانه وتفرده بالخلق عز وجل {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[1].

ومع أن كل علوم الناس مهما بلغت، أو يمكن أن تبلغ قليلة إلا أن الله قد استعبدنا بالبحث في آيات خلقه سبحانه، لندرك ولو بهذا القليل مدى عجز البشر، وضآلة قدراتهم، لتقوم عليهم الحجة بين يديه سبحانه وتعالى عند الحساب {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}[2]، فكم من آية ودليل يراها الإنسان بعينه، تنطق بأن الكون وما فيه مخلوق لله وحده لا شريك له، ومع هذا كأنه لم يرها، وكأنه لم يطلع عليها.

وانظر إلى قوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}[3]، وانظر إلى عجز البشر عن الاحتفاظ بهذا الماء على الرغم من شدة حاجتهم إليه، ولو أمكنهم التحكم في خصائص الأشياء لمنعوا الماء من التبخر، كما قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ}[4]، ولو كانت علوم الإنسان هي التي تخرج له الرزق من

---

١ سورة يونس: ١٠٤.

٢ سورة يوسف: ١٠٥.

٣ سورة الحجر: ٢٢.

٤ سورة النحل: ٧٣.

الأرض، لما أعجزه فيها شيء، ولارتفع التحدي في قوله تعالى: "وَلَا يَسْتَطِيعُونَ".

كما قال جل وعلا: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}[1]، ولو قدروا عليها لما انخسفت بهم، والأدلة على هذا المعنى لا حصر لها.

١ سورة سبأ: ٩.

حقائق كونية

كم من حقيقة كونية يكتشفها العلم كل يوم، والتي تدل مع كثرتها، على أن المجهول يفوق قدرة العقول على التخيل، ومع هذا فكم غابت عنا معالم ديننا ولم نعرف منه إلا القشور، مع أن ما يكتشفه العلم يصب كله في تأكيد إعجاز القرآن وجلاله، وكونه لا يكون إلا كلام الخالق سبحانه، ولو أننا تنبهنا عندما تهكم المتهكمون لاستفرغنا الوسع في إثبات جهلهم وقصور فهمهم، ولأدركنا بعض عظمة الخلق التي تنبيء عن عظمة الخالق سبحانه"[1].

إن علوم الفلك التي تمكنَّ العلماءُ من الاطلاع على النزر اليسير منها، تبين أن السماوات والأرض لا تمثل إلا كما تمثلة كرة في صحراء بيداء، لا

---

١ {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة غافر: الآية ٥٧]، { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف: الآية ١٨٥]، { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [سورة الكهف: الآية ٥١]، {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} [سورة الروم: الآية ٨]، {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [سورة الروم: الآية ٢٢]، {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [سورة الطلاق: الآية ١٢]، وغير ذلك من الأدلة كثير.

يدرك الناظر أبعادها، ولعل المجرات وما تحويه من نجوم يبين هذا المعنى.

ونوضح ذلك فيما يلي: (المجرة هي عبارة عن تجمع لعدد هائل من النجوم وتوابعها ومن الغبار والغازات المنتشرة بين أرجاء النجوم بالإضافة إلى المادة المظلمة وهو عنصر هام ولكنه غير معلوم إلى يومنا هذا، كل هذا مرتبط ببعضها البعض بالجاذبية.

تتراوح تلك المجرات من مجرات قزمة تحوي عدد قليل من حوالي عشرة ملايين نجم إلى مجرات عملاقة تحوي مئات المليارات من النجوم، كل منها تدور حول مركزها المجري.

يعتقد العلماء أن هناك ما لايقل عن ١٧٠ مليار مجرة موزعة خلال الكون المرئي، يتراوح قطر تلك المجرات من ألف فرسخ (الفرسخ ٣.٢ سنة ضوئية) إلى حوالي مئة ألف فرسخ، تفصل بينهم فراغات هائلة تبلغ ملايين الفراسخ، والفضاء بين المجرات ليس فارغا، وإنما يتواجد به غازات ضعيفة الكثافة).

والسنة الضوئية يقصد بها: المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن سرعة الضوء تبلغ: ثلاثمائة ألف كيلومتر لكل ثانية، وعلى هذا فالسنة الضوئية تبلغ: ٩٤٦١ تريليون كيلومتر.

وهذه المسافات فوق طاقة العقل على التصور، فكيف يكون الفرسخ وما يفوق الفرسخ ملايين أو مليارات المرات.

وليس هذا فقط بل إن الأمر يفوق قدرات العقول ولو اجتمعت، لأن هذا الكون يتمدد، ويتسع ((كان الاعتقاد السائد بأن حركة المجرات هي حركة

عشوائية مثلما الحال في حركة الغازات ولكن في عام ١٩٢٩ اكتشف ادوين هابل أن المجرات في تباعد مستمر عن بعضها البعض بسرعات هائلة قد تقترب في بعض الأحيان من سرعة الضوء، وهذا يعني ان الكون في توسع وتمدد مستمر))، ومع هذا ومهما تباعدت المجرات عن بعضها، ألا يسأل العقل وماذا بعد؟؟؟

هل يوجد حدود لحجم الكون، وكيف تكون الحدود، ولو تخيلنا وجودها فماذا يكون وراءها وماذا وراء ما وراء الحدود، أليس هذا هو السبب الذي جعل العلماء يقدرون أن كل هذا الذي يتخيلونه ما هو إلا جزء مما لم يحيطوا به، ولو حتى في الخيال، وصدق الخالق جل وعلا إذ يقول: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}[١].

وفي ظل هذه الحقائق لو قال قائل إن الجنة التي عرضها السموات والأرض، صغيرة مهما كان طولها، أفلا يمكن أن نقول بيقين: نعم كم هي صغيره؟؟؟

إن القصد من الاشارة إلى هذه الحقائق العلمية ليس مقصودا لذاته، بل إن النظر إلى هذه الحقائق يبين معنى للإعجاز يختلف تماما عما لو جهلنا هذه الحقائق، والتي لا يدرك العلماء منها إلا كما القطرة من المحيط أو أقل، ومع هذا ومع ضآلة ما يدركه العلماء فهم أولى الناس بإدراك عظمة الخالق سبحانه، ولعل هذا مما يدل عليه قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}[٢]، ولعل السبب هو ما يدركونه من هذا الإحكام الذي يفوق

١ سورة الذاريات: ٤٧.

٢ سورة فاطر: ٢٨.

طاقة العقول على التصور، والتي من خلالها يدرك العلماء مدى ضآلة المخلوقين جميعا، وعجزهم.

إن كثيرا ممن عجزوا عن إدراك هذه الحقائق أو بعضها، جعلهم العجز يجادلون في معجزة الإسراء والمعراج، ويقصرونها على أنها كانت بالروح ولم تكن بالجسد، ولم يدفعهم إلى هذا إلا أنهم يعلمون أن الجسد المادي لو تحرك بهذه السرعة الخيالية فإنه سيتناثر في الجو كذرات التراب، لأن تماسك ذرات الجسد سيتفتت، وبالتالي ينهار الجسد المادي، تماما ولا يصبح موجودا.

ومما يؤسف له أن هذا القول ـــ أي أن الإسراء والمعراج كان بالروح فقط ـــ يدل على مدى قصور هذه العقول عن الفهم، وعن استحضار حقيقة عظمة الخالق جل وعلا، وما ذلك إلا بسبب غياب العلم الحقيقي، والعلماء الذين يمكنهم إدراك أن كل خصائص الأشياء ما هي إلا منحة من الخالق، وأنه سبحانه هو الذي يمسك المجرات حتى لا تضرب بعضها بعضا، وينهار الكون كله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[1]، **فهل يعجز من يدير هذا الكون بهذه الدقة والإحكام، عن إكساب الجسد المادي خصائص تحفظه**، كما يحفظ المجرات، أليست هذه المجرات مادة، أو ليس من النجوم ما يتحرك في الكون بسرعات تفوق الخيال؟

١ سورة الحج: ٦٥.

فما المانع أن يعطي الخالق سبحانه صفات شيء لشيء آخر، كأن يعطي الجسد المادي ــ مثلا ــ خصائص أعظم الأشياء سرعة، دون أن يغير شيئا من تركيب الجسد، ولو ظننا أن هذا مستحيل فإن عذاب جهنم أشد استحالة لأنه لا يوجد ــ من منظورنا البشري ــ أي جسد يتحمل حر نار جهنم، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}[1]، إن هذه الجلود قبل أن تحرقها النار وتشويها تصمد فترة ليذوق العذاب، ولا يمكن لأي جلد بحالته البشرية المعهودة أن يصبر مطلقا لهذه النار، التي تصهر أشد المعادن صلابة في لمح البصر، فكيف بالجلود، ما المانع أن تكون هذه الجلود تصبح في الآخرة أشد صلابة من الفولاذ الذي نعرفه.

وليس القصد أنني أدعي شيئا من العلم بذلك، ولكن فقط أبين أن الخالق سبحانه هو الذي يعطي المادة خصائصها، وليس هناك أي مانع عقلي أن يعطي من الخصائص التي يشاء لما يريد عز وجل، {قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[2]، وهكذا فقدت النار خصائصها الذاتية، وتحولت إلى خصائص أخرى، دون أن تتغير صورتها، بل هي في أعين الناس نار، ويقينا هي تحرق كل من يقترب منها غير سيدنا إبراهيم عليه السلام، **يقول الإمام القرطبي**: (وَقَالَ كَعْبٌ وَقَتَادَةُ: لَمْ تُحْرِقِ النَّارُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا وِثَاقَهُ، فَأَقَامَ فِي النَّارِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَقْرَبَ مِنَ النَّارِ)[3].

---

١ سورة النساء: ٥٦.

٢ سورة الأنبياء: ٦٩.

٣ تفسير القرطبي.

فهل كانت النار تملك من أمر نفسها شيئا؟ وهل يمكن تصور كيف تجتمع النار مع البرد والسلام في نفس الوقت؟ كاجتماع النقيضين، أو ما يشبه ذلك؟ فهي تحرق وثاق سيدنا إبراهيم عليه السلام ولا تحرقه، ولو اقترب منها أحد لأحرقته، فلم يقدروا على الاقتراب منها، بينما سيدنا إبراهيم في أتونها سالمٌ آمن، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

هل العجز عن تصور الشيء يعنى أنه غير موجود، أو أنه مستحيل؟ إن هذا لهو الجهل بعينه، لأن الحركة الكونية واتساع الكون المدرك، وغير ذلك من حقائق الكون، لهو أشد إعجازا من ذلك كثيرا، وسبحان الخلاق العظيم إذ يقول: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[1].

١ سورة غافر: ٥٧.

المادة والروح

المادة معلومة لكل أحد فهي محسوسة ملموسة، مجسدة لها أبعاد وحدود، بينما الروح سر لا يعلمه إلا الله جل وعلا، ولكنه تبارك وتعالى أعلمنا بشيء من آثارها، حيث قال عز وجل: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ}[1]، (فصار حيا ناطقا)[2]، فأين علوم البشرية جمعاء لتخرج لنا بديلا للروح، فالجسد مكتمل الأجهزة في أحسن تقويم، ولكن لم تنفخ فيه الروح بعد، ولهذا لا حياة فيه ولا حركة، فما هي النفخة هذه التي أكسبته الحياة دون أي مظهر مادي ملموس، وما هي هذه الروح التي صيرته من جسد يابس كالحجارة ليصبح حيا طليقا يتمتع بكل معاني الرقي والحسن والكمال؛.

وكذلك قوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ}[3]، يقول بعض أهل العلم إنها الروح.

فحياة الإنسان أثر من آثار الروح، حتى وإن لم نعلم الكيفية التي تؤثر بها، وسيبقى الجسد الميت دليلا على وجود الروح، لأنه بمجرد فقدان الروح يصبح جثة هامدة.

---

١ سورة السجدة: ٩.

٢ تفسير الطبري.

٣ سورة الواقعة: ٨٣.

(وَقَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ أَيْ لِمَ لَا يَقُولُونَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَهُوَ وَقْتُ ظُهُورِ الْأُمُورِ وَزَمَانُ اتِّفَاقِ الْكَلِمَاتِ، وَلَوْ كَانَ مَا يَقُولُونَهُ حَقًّا ظَاهِرًا كَمَا يَزْعُمُونَ لَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُشْرِكُوا عِنْدَ النَّزْعِ، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُؤْمِنُ عِنْدَ الْمَوْتِ لَكِنْ لَمْ يُقْبَلْ إِيمَانُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ قَبْلَهُ، فَإِنْ قِيلَ: مَا سُمِعَ مِنْهُمُ الِاعْتِرَافُ وَقْتَ النَّزْعِ بَلْ يَقُولُونَ: نَحْنُ نُكَذِّبُ الرُّسُلَ أَيْضًا وَقْتَ بُلُوغِ النَّفْسِ إِلَى الْحُلْقُومِ وَنَمُوتُ عَلَيْهِ؟ فَنَقُولُ: هَذِهِ الْآيَةُ بِعَيْنِهَا إِشَارَةٌ وَبِشَارَةٌ، أَمَّا الْإِشَارَةُ فَإِلَى الْكُفَّارِ، وَأَمَّا الْبِشَارَةُ فَلِلرُّسُلِ، أَمَّا الْإِشَارَةُ وَهِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ لِلْكُفَّارِ حَالَةً لَا يُمْكِنُهُمْ إِنْكَارُهَا وَهِيَ حَالَةُ الْمَوْتِ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَفَرُوا بِالْحَشْرِ وَهُوَ الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لَكِنَّهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا الْمَوْتَ، وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ مَا هُوَ مَنْ مِثْلُهُ فَلَا يَشُكُّونَ فِي حَالَةِ النَّزْعِ، وَلَا يَشُكُّونَ فِي أَنَّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا يَبْقَى لَهُمْ لِسَانٌ يَنْطِقُ، وَلَا إِنْكَارٌ بِعَمَلٍ فَتَفُوتُهُمْ قُوَّةُ الِاكْتِسَابِ لِإِيمَانِهِمْ وَلَا يُمْكِنُهُمُ الْإِتْيَانُ بِمَا يَجِبُ فَيَكُونُ ذَلِكَ حَثًّا لَهُمْ عَلَى تَجْدِيدِ النَّظَرِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ قَبْلَ تِلْكَ الْحَالَةِ، وَأَمَّا الْبِشَارَةُ فَلِأَنَّ الرُّسُلَ لَمَّا كُذِّبُوا وَكُذِّبَ مُرْسِلُهُمْ صَعُبَ عَلَيْهِمْ، فَبُشِّرُوا بِأَنَّ الْمُكَذِّبِينَ سَيَرْجِعُونَ عَمَّا يَقُولُونَ، ثُمَّ هُوَ إِنْ كَانَ قَبْلَ النَّزْعِ فَذَلِكَ مَقْبُولٌ وَإِلَّا فَعِنْدَ الْمَوْتِ وَهُوَ غَيْرُ نَافِعٍ، والضمير في بَلَغَتِ للنفس أو الحياة أَوِ الرُّوحِ)[1]

ولعل تقدم العلم يوما بعد يوم يساعد على تأكيد هذه الحقيقة ولا ينفيها، فإن الجسد يمكن أن تكون جميع أجهزته سليمة ولكن لا حياة به، ولم يوجد لا بالعلم ولا بأي طريق بشري ما يربط بين الحياة وبين الروح، فقط ما أخبر به الخالق سبحانه جل شأنه.

١ تفسير الرازي.

ولو لم يكن في حياة الناس ما يدل على الروح لما كان لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}[1] أي معنى في أذهاننا، لأنه سيكون في هذه الحال من قبيل العبث، تماما كما لو لم يكن للشيطان أثر في حياة الناس، لكان الحديث عنه عبثا، لأنه سيكون من قبيل العدم، أو اللاشيء، وتنزه الخالق سبحانه وتعالى أن يحوي كتابه شيئا من قبيل ذلك.

ولهذا يكون حديثه جل شأنه عن الروح حديثا عن حقيقة يمكن للناس أن يدركوها بوجه ما، حتى وإن لم يكن على سبيل العلم، وهكذا نتأكد من أن وجود الشيء لا يتوقف على العلم به، أو إدراك حقيقته.

ومن هنا فالحديث عن الروح يكون من أهم الحجج التي يقيمها الخالق سبحانه على البشر، وبخاصة الذين ينكرون الغيب بكل معانيه، ونسوا أن الجزء المدرك من الكون كله محدود للغاية، مع ما فيه من كم هائل من الخصائص والصفات التي لا يعلم عنها الإنسان شيئا، ومع هذا فإن مالا يدركه الإنسان من الكون بالكلية أكبر بمراحل كثيرة مما يدركه، وقد تأكد العلماء من وجود الكون غير المدرك، فهل ما يخفيه هذا الكون ليس غيبا؟؛

إن الغيب الذي يحيط بالإنسان في حياته كلها لهو أهون كثيرا من الغيب الذي يجهله في الكون كله، أفلا يكون إنكار الغيبيات ــ بعد استحضار هذه الحقائق الكونية ــ لونا من ألوان الجهل، حتى ولو كان القائل به من أعلم أهل الأرض في الأمور المادية؟؟؛

وأما الحديث عن المادة فهو حديث عن أمر لا يمكن للناس إنكاره، ومع هذا فهو ــ من وجهة نظر ــ أعقد من الحديث عن الروح من أوجه شتى،

---

١ سورة الإسراء: ٨٥.

لأن البحث عن حقيقة الروح ميئوس منه، ولهذا انقطع أمل الناس في البحث فيه، بينما الحديث عن المادة حديث عن شيء مدرك ملموس، بما يوحى بفهمه والإحاطة بالعلم به، فلا ينقطع البحث فيه، وما زال العلماء يتبارون في كشف أسراره، وكلما غلب على ظنهم أنهم قد وصلوا إلى حقيقة نهائية في شيء ما، سرعان ما يظهر لهم ما يُخطِّيء هذا الظن، ومن هنا كان التعقيد وكانت الصعوبة.

ولعلي لا أجافي الصواب إذا قلت إن ما يظن العلماء أنه من الحقائق العلمية اليقينية لن يكون كذلك مطلقا، بل سوف يأتي ــ يوما ما ــ ما يُدخل تعديلا على هذه الحقيقة بصورة أو بأخرى، وعلى سبيل المثال ما قال عنه العلماء أنه لا توجد في الكون سرعة أعلى من سرعة الضوء، أكاد أجزم أن هذه السرعة التي تفوق سرعة الضوء موجودة، ولكنها مازالت غيبا، قد يتأكد منه العلماء قريبا، حتى وإن لم يطلعوا عليه بذاته، والذي يدفعني إلى هذا الجزم هو قول المولى تبارك وتعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[1]، والذي أعتقده أن هذا ليس معناه أن العلوم التي ندركها قليلة وحسب، بل إن المدرك من كل علم على حدة قليل أيضا، وهذا يفيد عدم ثبات أي حقيقة مادية إلى الأبد، وليس معنى هذا هدم بالكلية بل المقصود أنها ستظهر من الخصائص والصفات ما لم يكن معلوما، مع بقاء أصل الحقيقة، لم يهدم، ولم ينقض.

وإذا نظرنا إلى الجسد البشري الذي تحدى الله به الخلق، سنجد أن ما وصل إليه العلماء، من كشف أسراره، يكاد يجعلهم يحسبون أن خلق هذا

١ سورة الإسراء: ٨٥.

الجسد قد أصبح في متناول أيديهم، وبخاصة بعد معجزة الخلايا الجذعية"[1]، والتي استطاعوا أن يخلقوا منها أجهزة الجسم، ومع هذا يفاجئهم الموت، فلا يستطيعون رده، مع أن منع الموت أيسر كثيرا جدا من الخلق من عدم.

إن الذين ينكرون الغيب كان يكفيهم أن ينظروا إلى هذه القطعة التي لا تمثل أي نسبة معتبرة من أي وجه إذا ما قورنت بالكون كله، هذه القطعة هي الجسد، وهي عند من ينكرون الغيب مادة فقط، لأن الروح من الغيب الذي لا يؤمنون به.

ومع أنه لا يوجد في أي ناحية من العالم مكان لا يقوم فيه أهل العلم بدراسة خصائص هذا الجسد من كل وجه، إلا أنهم قد عجزوا عن قهر المرض، أو التغلب على الموت، على الرغم من هذه الثورة المذهلة في مجال الطب، والمتمثلة في مسألة الخلايا الجذعية، والاستنساخ، ومع هذا قهرَهمُ الموتُ وتغلب عليهم، **وسيبقى الموتُ أقوى دليل على أن الخالق هو الله وحده لا شريك له**، وأن كل ما يدعيه البشر ما هو إلا محض افتراء، لأنهم ما خلقوا شيئا من عدم، بل إنهم فقط قد أدركوا بعض الخصائص في الخلية، التي خلقها الله تعالى، فقادهم العلم بهذه الخصائص إلى ما وصلوا إليه، وشتان بين هذا وبين الخلق من عدم"[2].

---

١ ويرجع في تعريفها إلى أهل العلم والاختصاص في هذا الشأن، ولكن ما علمناه عنها هو ما ذكرناه، وليس المقصود البحث في حقيقتها.

٢ يقول تبارك وتعالى: {هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سورة لقمان: الآية ١١].

ولو صحت دعوى من يدعي الخلق منهم، لكان أهون عليه من الخلق الذي يدعيه أن يمنع الموت، ولكن هيهات هيهات، فقد سبق قوله عز وجل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[1].

إن تخليق الشيء مما هو موجود ليس خلقا، ولهذا فكل ما يقوم به أهل العلم لا يوجد ما ينفي قدرتهم عليه، ولكن يظل الموت هو الأمر القاطع الحاسم لأي ادعاء {قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[2]، إن هذا التحدي لا يقدر عليه الخلق كلهم ـــ ولو اجتمعوا ـــ لأن الموت سوف يقهرهم جميعا، ولعل ما يبين هذا المعنى ويؤكده ـــ أنهم لا يقهرون الموت ـــ أنه يوجد على ظهر الأرض من تعدى المائة والعشرين عاما"[3]، فهل استطاعو أن يزيدوا في الأعمار لتصبح جميعا فوق المئة عام، أو هل استطاعوا أن يزيدوا في أعمار المعمرين لتصبح مائتين سنة مثلا، وإذا لم يكن ممكنا، فهل لهم حجة في هذه الاستحالة، ولن يجدوا أي حجة أو دليل إلا نصوص الشرع التي بينت أن أعمار هذه الأمة قليلة وليست كسابقتها من الأمم، أفلا يكون هذا آية ودلالة على وجود الخالق سبحانه؛

إن الموت هو الآية والعلامة التي لا تخفى على أحد، ومع هذا فليس الإعجاز قاصرا عليه فقط، بل الأكثر من ذلك أن العلماء يكتشفون كل يوم ـــ تقريبا ـــ جديدا فيما يتعلق بالجسد، لم يكن معلوما لهم من قبل، والذي يؤكد تحدي الخالق سبحانه للخلق أجمعين إذ يقول: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا

---

١ سورة العنكبوت: ٥٧.

٢ سورة آل عمران: ١٦٨.

٣ كما نقل في بعض وسائل التواصل الحديثة.

تُبْصِرُونَ}[1]، ولولا هذا الخبر ـ بأن تحدي الجسد لن ينتهي إلى قيام الساعة ـ لأمكن للخلق الجزم بانتهاء كل أسراره.

ولكن لأنه جل شأنه ليس كمثله شيء، فهو وحده القادر على إعلان هذا التحدي الذي لا ينقطع إلا بانتهاء حياة البشر، وليس بانتهاء أسرار الجسد البشري الصغير المحدود.

فهل غير المدرك من الجسد متعلق بالروح؟، أم أن نجاح العلم في اكتشاف الجديد كل يوم يشير إلى كونه متعلقا بالمادة؟، بما يعنى أن أسرار المادة نفسها لن يحيط بها البشر على وجه القطع واليقين، مهما بلغت علومهم.

ومما لا شك فيه أن حقائق الجزء المادي ـــ المدرك من الجسد ـــ كافية عند أصحاب الفطر السليمة للإيمان بوجود الخالق سبحانه، وبالتالي الامتثال والتصديق بكتبه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولكن مع هذا فاغترار الإنسان بعلمه وعقله قد يصرفه عن الآيات السهلة المباشرة البسيطة، إلى أن يرى ما يجعل عقله عاجزا تائها متحيرا، ليقر ويعترف بالغيب، وبأن الكون لابد له من خالق عظيم جل في علاه.

من أجل ذلك كان الجزء الغيبي من صفات المادة وخصائصها آية، ودلالة على عجز الإنسان وضعفه وهوانه، وبالتالي فهو أشد عجزا وهوانا أمام الآيات الكونية، التي تخرج عن نطاق قدرته وإدراكه، والتي تشمل الجنة والنار وما يتعلق بهما، وكذلك ما يلقاه الإنسان من مجهول بعد

١ سورة الذاريات: ٢١.

الموت، إلا ما أخبرت عنه نصوص الشرع على النحو الذي نوضحه، قدر استطاعتنا، بتوفيق الله وهدايته عز وجل.

الجانب الغيبي من صفات المادة

تثبت النصوص الشرعية أن للمادة ــ المتمثلة في الجمادات المختلفة ــ خصائص وصفات لا نعلم عنها شيئا، والتي قد تصل إلى ما يشبه تعلق الروح بالجسد، بمعنى العجز عن إدراك حقيقته، وإن أمكن الاهتداء إلى بعض آثاره.

وهذا الجزء من المادة أرشد الله إلى وجوده عن طريق نصوص شرعية، اضطر الإنسان إلى حملها على معنى مجازي، عندما استحال حملها على المعنى الحقيقي بالنسبة له، ولكن مع هذا ألا يمكن أن يكون فيما يهتدي إليه الناس ــ يوما بعد يوم ــ مما لم يكن معروفا من خصائص المادة ما يكفي للتصديق بوجود ما لا يمكن الاهتداء إليه من هذه الخصائص، وأخبر الخالق سبحانه وتعالى عنه، تماما كما في مفهوم الروح وظهور أثرها، بمعنى أننا يجب أن نحمل النصوص على حقيقتها ونقر بعجزنا عن الوصول إلى فهم كيفيتها، كما في قوله تعالى: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ}[1]، والذي ذهب إليه أهل العلم أن إسناد الإرادة إلى الجمادات من قبيل المجاز.

يقول الإمام ابن كثير: (وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ؛ وَهُوَ إِسْنَادُ الْخُشُوعِ إِلَى الْحِجَارَةِ كَمَا أُسْنِدَتِ الْإِرَادَةُ إِلَى الْجِدَارِ فِي قَوْلِهِ: {يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ} قَالَ الرَّازِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ: وَلَا حَاجَةَ إِلَى

١ سورة الكهف: ٧٧.

هَذَا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَخْلُقُ فِيهَا هَذِهِ الصِّفَةَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} وَ {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ} الْآيَةَ، {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} {لَوْ أَنزلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ} الْآيَةَ، {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ} الْآيَةَ)[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي}[2]، قالوا: (هَذَا مَجَازٌ لِأَنَّهَا مَوَاتٌ، وَقِيلَ: جُعِلَ فِيهَا مَا تُمَيِّزُ بِهِ)[3].

ولكن لِمَ لا يكون الإسناد هنا حقيقة وليس مجازا، وتكون الإرادة الخاصة بالجدار من قبيل الحقائق التي لم يُطلع اللهُ البشر عليها، تماما كحقيقة الروح التي لم يطلع الله البشر عليها.

ومع كل ما قال به أهل العلم، من حمل هذه الآيات على جهة المجاز، لا يمكن أن نمنع أنفسنا من التوقف أمام هذا القول، حيث نظن أن الحمل على المجاز ليس بالضرورة أن يكون وجها من أوجه البلاغة، بل قد يكون أحيانا من أوجه العجز عن قول الحقيقة"[4]، وتنزه الخالق سبحانه عن ذلك.

وكذلك لا تسلم النفس من الريبة ــ ونعوذ بالله من ذلك ــ إذا كانت كل هذه الآيات الكثيرة لا وجه لها إلا المجاز، وكأننا نلزم الخالق ـ والعياذ بالله

---

١ تفسير ابن كثير.

٢ سورة هود: ٤٤

٣ تفسير القرطبي.

٤ الْمَجَازُ أَخَفُّ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَعْوَنُ عَلَى تَحْقِيقِ الْأَوْزَانِ نَظْمًا وَنَثْرًا، وَعَلَى تَحْقِيقِ الْجِنَاسِ وَالطِّبَاقِ، وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّحْقِيرِ، وَهُوَ أَخَفُّ عَلَى الْقُلُوبِ، وَأَسْهَلُ دُخُولًا فِي الْأَسْمَاعِ، وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ لُغَةِ الْعَرَبِ وَمَحَاسِنِهَا. شرح مختصر الروضة

من ذلك ــ أن تكون الحقائق هي ما تطيقه عقولنا، ولست أدري لم لا يكون لكل شيء في الوجود نوع حس أو إدراك يتوافق مع الحكمة من خلقه، ووظيفته في الكون، بما في ذلك الجمادات، ولِمَ لا يكون انضباط نظام الكون متعلق بخصائص ذاتية، خلقها الله في كل شيء بما يناسبة، وِلِمَ لا يكون بين الجمادات الكونية نوع تواصل بصورة ما، وليس بالضرورة أن يكون هذا التواصل قاصرا على تأثير الجاذبية، هل أحطنا علما بأسرار الكون حتى نُلزم بامتناع هذا؟

ولمزيد من تقريب المعنى الذي نحن بصدد الحديث عنه نتمثل قول المولى تبارك وتعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[1]، فقد أسند المولى تبارك وتعالى الخشية إلى الحجارة، والخشية لا تكون إلا عن إدراك، وقوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[2]، وهنا أيضا تسبيح الجمادات، والذي يشير إلى معنى من معاني الإدراك، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[3]، فكونها أبت وأشفقت يدل على هذا المعنى الذي نقصده،

١ سورة البقرة: ٧٤.

٢ سورة الإسراء: ٤٤.

٣ سورة الأحزاب: ٧٢.

والذي يصبح بلا دلالة أو أثر ــ تقريبا ــ لو حمل على المعنى المجازي، ولهذا فالواجب حمله على المعنى الحقيقي، ويكون مما يجهله الناس، وليس بالضرورة أن كون الجماد لا حياة فيه، من منظورنا، أنه لابد أن يكون كذلك، بمعنى أن لا يمكن أن يكون له حديث، لأنه لا حديث بغير حياة، كما هو مستقر في أفهامنا، فإن حقائق الكون تثبت أن ما نجهله هو الأصل، وأن ما نعلمه عن أي شيء مهما بلغ فهو قليل قليل.

إن عقولنا تستطيع أن تفهم أن الحشرات ــ مهما كان حقارة شأنها ــ لها حديث، على أي وجه كان، لأن فيها حياة، **ولكن العقل يعجز عن فهم كيف يسبح الجماد، وتكون له إرادة وخشية وإشفاق، وهو لا حياة فيه**، ولولا أن الخالق سبحانه أخبر عن ذلك لما أمكن للعقل تصديقه.

ومع هذا فإن من السنة المطهرة ما يؤكد هذا المعنى الذي نقصده، ألا وهو أن الجمادات لها حياة بصورة من الصور التي لا نعلمها، وأن حمل هذه الأحاديث على وجه المجاز يبطل مدلولها تماما، بما يعنى وجوب حملها على الحقيقة، مهما كان من عجز العقول عن تصورها.

ففي الحديث قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»[1].

أليس تخصيص حجرٍ بعينه بهذا الخبر دليلا على هذا المعنى الزائد عن معاني المجاز، وإلا لو حمل على المجاز فما وجه تخصيصه بالسلام دون سائر الحجارة؟

١ صحيح مسلم.

وإذا كان سيدنا سليمان عليه السلام قد علمه ربه منطق الطير، فما الغريب في أن يعرف رسول الله ﷺ سلام الحجر عليه، ولماذا خَصَّ هذا الحجر وهو لا يختلف عن غيره من الحجارة، إن لم يكن السلام حقيقة.

وفي الحديث عَنْ سيدنا جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى المِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ. قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا»[1].

أَوَ ليس هذا الحديث مما يؤكد قصور فهمنا، فيما يتعلق بالجماد وخصائص الأشياء، أَوَ ليس من الأصوات ما لا يمكن للإنسان أن يسمعه، ويسمعه غير الإنسان، ما العجيب أو الغريب أن يسمع رسول الله ﷺ هذه الأصوات التي لا يسمعها الإنسان، كما في سماعه ﷺ أنين النخلة، ويكون هذا من دلائل نبوته ﷺ.

ويقول الإمام النووي: "(كَمَا دَعَا الشَّجَرَتَيْنِ الْمُفْتَرِقَتَيْنِ فَاجْتَمَعَا وَكَمَا رَجَفَ حِرَاءٌ فَقَالَ اسْكُنْ حِرَاءُ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ"[2] ...

---

١ صحيح البخاري.

٢ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحِرَاءٍ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، فَتَزَلْزَلَ الْجَبَلُ» ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اثْبُتْ حِرَاءُ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ» المستدرك على الصحيحين للحاكم.

الْحَدِيثَ ... وَكَمَا كَلَّمَهُ ذِرَاعُ الشَّاةِ"[1]، وَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تفقهون تسبيحهم وَالصَّحِيحُ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ حَقِيقَةً بِحَسَبِ حَالِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُهُ)[2].

ولعل العلم قد أثبت ـــ بوجه من الوجوه ـ ما يمكن أن يؤكد تسبيح الجماد، حتى وإن كان بالنسبة لنا لا حياة فيه، حيث أثبت تأثر النبات بالموسيقى ـ على سبيل المثال ـ أو ما يشبه ذلك.

أما نحن فقد علمنا ـ يقينا ـ تأثر الماء بقراءة القرآن عليه، ورأينا أثر ذلك في العلاج بالرقية الشرعية، وما شابه هذا، وإذا ما أدركنا هذه الحقيقة سهل علينا التصديق بوجود الجانب الغيبي في الجمادات، لأننا إذا أقررنا بوجود الروح، سهل علينا الإقرار بتسبيح الجماد، وتيقنا أن هذا الجماد ليس مقدورا ـ كما نظن ـ بالنسبة لنا بأكمله، بل يبقى منه جزء غيب لا إدراك لنا به.

فإن المجهول الذي نبحث عنه سيبقى أبدا مجهولا إلا أن نوفق في الاهتداء إليه، ولن نحيط به أبدا، مهما اجتهدنا وحاولنا، واهتدينا إلى جزء

---

١ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» زَادَ: فَأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ و مِنْهَا وَأَكَلَ الْقَوْمُ فَقَالَ: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ» سنن أبي داود.

٢ شرح النووي على مسلم.

منه، لأن قوله تعالى: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}، يعنى أنها ستبقى كذلك إلى قيام الساعة.

والمعنى أن المجهول الذي نلمس آثاره موجود، وكذلك تسبيح الجماد الذي لا نطلع عليه موجود، وإذا كان جسد الإنسان من دلائل تفرد الخالق بالإيجاد من العدم سبحانه، وأنه سيبوح ببعض أسراره، كلما جاهد الإنسان في الوصول إليها، كذلك الجماد أو بمعنى أوسع كل شيء سيبوح ببعض أسراره، كلما اجتهد الإنسان في الكشف عنها، وهذا من أهم معاني الغيب الكامن في الجمادات، التي لن ينقطع أثرها أبدا، ولعل منها إثبات نوع حياة للجمادات، وهذا يؤكد أن الغيب مجهول لا يعلمه إلا الله تعالى، وأنه لا ينكشف شيء منه ويظهر لأحد قط إلا بإذنه سبحانه.

ومما يجب التنبيه عليه أن هناك فرقا بين الغيب الذي يمكن للإنسان أن يكتشفه بوسيلة من الوسائل، بعد توفيق الله عز وجل، وبين الغيب الذي لا يعلمه إلا الله والذي يشير إليه قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}[1]، فهذا الغيب ليس في مقدور البشر الوصول إليه، مهما طال بهم الزمان، وتقدمت بأيديهم العلوم، ففي الحديث: "عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ"[2].

١ سورة الأنعام: ٥٩.

٢ صحيح البخاري.

وهذه الخمس يجمعها قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[1].

ونفهم من ذلك أن كل ما نتحدث عنه مما هو غيب لا يدخل في هذه الخمس، والتي لا قبل للبشر بكشف خفائها، وأن الغيب الذي نتحدث عنه يمكن أن يقال عنه إنه غيب مؤقت، إلى حين يتمكن الإنسان من كشفه، أو المقدور منه.

☜ **دفع شبهة:**

يذهب البعض إلى القول بأن ما في الأرحام لم يعد غيبا، بعد أن استطاع العلم الحديث الوصول على صفة الجنين وعمره، وغير ذلك من الأمور المتعلقة، ولكن لابد أن نتوقف أمام هذا الإدعاء لننظر في الأمر على نحو منضبط.

☜ **ومن ذلك**: أننا أوردنا من الأدلة الشيء الكثير الذي يدل على آيات الخلق التي تدل على أن الخالق واحد لا شريك له، وأن قوله الحق، وتعالى سبحانه أن يكون له ند أو شريك، ومعنى هذا: أن أي فهم يمكن أن يؤدي إلى معارضة نص من نصوص القرآن الكريم لابد أن نوقن إما أن وجه الاستدلال الذي ذهبنا إليه غير صحيح، أو أن فهمنا لوجه الدلالة غير صحيح، وفي كل الأحوال لا يمكن بحال الطعن في النص، وإلا كان هذا معناه والعياذ بالله رفض كل ماجاء عن الخالق والعياذ بالله.

---

١ سورة لقمان: ٣٤.

ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن اختصاص الخالق بعلم ما في الأرحام هو استدلال صحيح للنص القرآني، فلم يبق إلا أن نفهم وجه الدلالة على نحو صحيح، **ومن هذا الفهم الصحيح أن نحمل النص على أوجه معينة**:

ومنها: أن يكون المقصود هوالعلم بالجنين وما يتعلق به قبل تكونه، أي منذ لحظة الحمل التي لا يعلم منها شيء من هذه الأمور، وأما ما بعد ذلك فلم يعد غيبا مجهولا بل غيب مقدور، والله أعلى وأعلم.

منها: أن المقصود بعلم ما في الأرحام ليس ما نظنه من جنس الجنين وعمره وغير ذلك، ولكن المقصود ما سيؤل إليه، من حيث الحياة أو الموت، قبل الولادة أو بعدها، ومن حيث الهداية والشقاء، والعياذ بالله، ونحو ذلك.

ومنها: أن يكون المقصود شيء لا يتعلق بالجنين في ذاته، ولكن يتعلق بما في الأرحام من خصائص وصفات تجعل منه عقيما، أو غير عقيم، وإن لم يكن عقيما هلى يقدر على الحمل أم لا، وهكذا باقي هذه الخصائص والصفات المتعددة، والله أعلى وأعلم.

وقد يكون المقصود هو مجهول لم نعلمه بعد، والله أعلى وأعلم.

مفهوم الحياة

تستقر في أذهاننا حصيلة المعاني التي نتعايش معها ونألفها، وتصبح من المسلمات التي لا يمكن تغييرها في أذهاننا، أو يصعب علينا ذلك إلى حد بعيد، ومن ذلك معنى الحياة لدينا، في أذهاننا، فلقد خاطبنا الله جل جلاله بقوله: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}[1]، {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}[2]، وغير ذلك من الآيات التي تربط بين الموت والحياة، فغلب على ظننا أن الحياة نقيض الموت، ومن هنا أصبح مفهوم الحياة لدينا مرتبطا بالحركة الذاتية للأشياء، الناشئة عن إرادة، فكل ما يتحرك أمامنا حركة ذاتية مقصودة منه فهو حي، وما عدا ذلك فهو ميت، أو ما يدور في هذا المعنى.

وقد صرفنا هذا عن التفكر في نصوص الشرع لنفهمها على وجه صحيح، ومن ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[3]، حيث سارعنا فورا إلى القول بأن قول السماء والأرض مجاز عن الخضوع والانقياد، ولم نتصور كون أن فيها حياة، لأنها لدينا من الجمادات، وكما تعلمنا فإن الجمادات لا حياة فيها.

---

١ سورة الملك: ٢.

٢ سورة الحج: ٦٦.

٣ سورة فصلت: ١١.

مع أننا وعن طريق العلم قد علمنا أنه ما من جسم أو جوهر إلا وهو يتكون من ذرات في حركة دائبة، ومعنى هذا أن الجمادات جميعها ليست معدومة الحركة، بل إن لها حركة تتناسب تماما مع ما خلقها الله من أجله.

وهذه الحركة الذرية وما يمكن أن ينشأ عنها من قوة هائلة قادرة على الدمار، والذي استطاع العلماء الوصول إليها، من خلال فهمهم لخصائص الجمادات، ألا يكون هذا دليلا على أن لها حياة خاصة بها، حتى وإن لم تكن تشترك معنا في صفات الحياة.

إن هذه الحقائق التي وصل إليها الإنسان يجب أن تجعلنا نعيد فهم آيات الله تعالى حتى ندرك ما غاب عنا، ومن ذلك أنه ما من شيء مخلوق إلا وله حياة"[1]، لا نعلمها على وجه اليقين، ولكن لابد من الإيمان بوجودها، وأن هذه الجمادات تنطق بطريق لا نعلمه، ولها لغة لا نعلمها، كما أن لها صوت حيث بينت الآيات في أكثر من موضع وجود هذه اللغة والتي تؤكد وجود الصوت.

وهكذا تنطق الجمادات وتتكلم ولكن على غير ما عهدناه، أو نعرفه، يقول **الإمام ابن حزم**: (قوله تَعَالَى "قَالَتَا أَتَيْنَا طائعين" فقد علمنَا بِالضَّرُورَةِ والمشاهدة أَن القَوْل فِي اللُّغَة الَّتِي نزل بهَا الْقُرْآن إِنَّمَا هُوَ دفع آلَات الْكَلَام من أنابيب الصَّدْر وَالْحلق والحنك وَاللِّسَان والشفتين والأضراس بهواءٍ يصل إِلَى أذن السَّامع فيفهم بِهِ مرادات الْقَائِل فَإِذْ لَا شكّ فِي هَذَا فَكل من لَا لِسَان لَهُ وَلَا شفتين وَلَا أضراس وَلَا حنك وَلَا حلق فَلَا

١ وكأن مفاد ذلك أن نقيض الحياة هو العدم، وليس الموت، لأن الموت ليس عدما، وكذلك الجمادات ليست عدما، لأنها مخلوقة أيضا، والله أعلى وأعلم.

يكون مِنْهُ القَوْل الْمَعْهُود منا هَذَا مِمَّا لَا يشك فِيهِ ذُو عقل فَإِذْ هَذَا هَكَذَا كَمَا قُلْنَا بالعيان فَكل قَول ورد بِهِ نَص وَلَفظ مخبر بِهِ عَمَّن لَيست هَذِه صفته فَإِنَّهُ لَيْسَ هُوَ القَوْل الْمَعْهُود عندنَا لكنه معنى آخر)[1]، والمعنى الآخر للكلام موجود، فهي تتكلم ولكن بصورة أخرى، ولكن لا نعلم عنها شيئا.

وينقل **الإمام الرازي** حجة أهل العلم الذين حملوا معنى هذه الآيات على ظاهرها، مع أنه من الذين ينصرون جانب المجاز، فيقول: (وَاعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ يَقْتَضِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِالْإِتْيَانِ فَأَطَاعَا وَامْتَثَلَا وَعِنْدَ هَذَا حَصَلَ فِي الْآيَةِ قَوْلَانِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنْ تَجْرِيَ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا فَنَقُولُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُمَا بِالْإِتْيَانِ فَأَطَاعَاهُ قَالَ الْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ وَهَذَا غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْجِبَالَ أَنْ تَنْطِقَ مَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ"[2]، ثم يقول: "وَاللهُ تَعَالَى تَجَلَّى لِلْجَبَلِ قَالَ: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ"[3]، وَاللهُ تَعَالَى أَنْطَقَ الْأَيْدِيَ وَالْأَرْجُلَ فَقَالَ: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ"[4]، وإذا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ فِي ذَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَيَاةً وَعَقْلًا وَفَهْمًا، ثُمَّ يُوَجِّهُ الْأَمْرَ وَالتَّكْلِيفَ عَلَيْهِمَا).

---

١ الفصل في الملل والأهواء والنحل.

٢ سورة سَبَأٍ: ١٠.

٣ سورة الْأَعْرَافِ: ١٤٣.

٤ سورة النور: ٢٤.

واستدل أصحاب هذا القول: (بِوُجُوهٍ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْأَصْلَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى ظَاهِرِهِ إِلَّا إِذَا مَنَعَ مِنْهُ مَانِعٌ، وهاهنا لَا مَانِعَ، فَوَجَبَ إِجْرَاؤُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْهُمَا، فَقَالَ: قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ وَهَذَا الْجَمْعُ جَمْعُ مَا يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ. الثَّالِثُ: قَوْلِهِ تَعَالَى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا"[1] وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهَا عَارِفَةً بِاللهِ، مَخْصُوصَةً بِتَوْجِيهِ تَكَالِيفِ اللهِ عَلَيْهَا.

الْقَوْلُ الثانِي: أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ تَوْجِيهَ الْأَمْرِ وَالتَّكْلِيفِ عَلَى السماوات وَالْأَرْضِ بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّهُ أَرَادَ تَكْوِينَهُمَا فَلَمْ يَمْتَنِعَا عَلَيْهِ وَوُجِدَتَا كَمَا أَرَادَهُمَا)[2].

وأيًّا ما كان دليل كل قول فإن الترجيح من باب الاجتهاد، ولا يمكن الجزم واليقين إلا من خلال النصوص الصريحة، وهنا لا توجد نصوص صريحة، فكان جانب الاجتهاد هو الممكن، ولعل مما يؤكد نطق الجمادات الدال على وجود الصوت قوله تعالى: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}[3].

(وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الشَّهَادَةَ شَهَادَةٌ صَدَرَتْ مِنْ تِلْكَ الْأَعْضَاءِ لَا مِنَ اللهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ وَأَيْضًا أَنَّهُمْ قَالُوا لِتِلْكَ الْأَعْضَاءِ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا فَقالَتِ الْأَعْضاءُ

---

١ سورة الأحزاب: ٧٢.

٢ تفسير الرازي.

٣ سورة فصلت: ٢١.

أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ هِيَ تِلْكَ الْأَعْضَاءُ، وَأَنَّ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ لَيْسَتْ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى)[1].

وكما في قوله تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}[2].

والحقيقة أن حمل الأدلة الواردة في الكتاب والسنة على المجاز، والتي تثبت نطقا للجمادات، إنما ذهب إليه من ذهب من أهل العلم اضطرارا وليس بسبب الأدلة، وكلامهم ليس حجة في هذا الشأن وبخاصة وقد أثبت العلم أن هناك أصواتا لا يسمعها الإنسان وهو ما ورد في الحديث عَنْ سيدنا أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الكَافِرُ - أَوِ المُنَافِقُ - فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ"[3].

وهذا الحديث يستدل به بطريقة غير مباشرة، فقد وجد النطق ولم يوجد السمع من البشر، وهذا حديث يعاب على أي أحد أن يحمله على المجاز،

١ تفسير الرازي.

٢ سورة ق: ٣٠.

٣ صحيح البخاري.

لأن هذا الباب كفيل لو فتح على مصراعيه أن يعطل الكثير من الأدلة من القرآن والسنة جميعا.

وعلى هذا فكما يوجد الصوت ويعجز البشر عن سماعه، فما المانع أن يكون هذا الصوت ليس قاصرا على أصوات من في القبور، بل يوجد أيضا في الجمادات ولكن لا طاقة لنا بسماعه أو إدراك كنهه، وكما في الحديث الذي رواه **الإمامان البخاري ومسلم** وغيرهما، عن سيدنا أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ"[1].

ولو حملت هذه الأحاديث على المجاز لأصبحت الأحاديث فارغة من مضمونها، ولأصبح تأويلها على وجوه غير محصورة سهلا، ولكان معناه أن يصبح العقل حاكما على النص، على الرغم مما أثبتناه من أن إدراك العقل لحقائق الكون لا يكاد يصل إلى ذرة بالنسبة لما لا يعلمه ولا يدركه.

وأكتفي بهذه الأدلة المنقولة والتي تؤكد كلها أن الحياة ليست مقصورة على المعنى الذي نفهمه، بل إن الصواب أن كل مخلوق حي، بما في ذلك الجمادات كلها، لأنها مخلوقة كباقي الخلق {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[2]، ولكنها حياة لا ندركها.

☜ **وعلى هذا يمكننا أن نقسِّمَ الحياة إلى قسمين:**

الأول منهما: الحياة التي ندركها.

---

١ متفق عليه.

٢ سورة الزمر: ٦٢.

والثاني: حياة لا ندركها، ومن أجل ذلك ظننا أنها ليست موجودة، فحكمنا عليها بعدم الحياة.

ولقد عرض لعقلي دليل لست متأكدا من صوابه، ومع هذا حرصت على ذكره لعل أحدا غيري يرى فيه ما لم أستطع بيانه، وأقصد به انقسام الحياة إلى مدركة وغير مدركة، حيث أنني استدللت على ذلك بقوله تعالى: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[1]، ففي هذه الآية يخبر سبحانه أنه الحي القيوم أي الدائم الباقي، وهذا يؤكد بالضرورة أنه لا يموت، لأن الذي يموت لا يكون قيوما، ومع هذا ففي الآية الأخرى يخبر سبحانه بأنه الحي الذي لا يموت {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}[2]، وقد وجدت لأهل العلم في الجمع بين الآيتين أقوالا كثيرة مقبولة ولا مطعن فيها، ولكن ماذا لو نظرنا إلى الآيتين على أن "الحي القيوم" أي الذي لا تتغير حياته كحياة الموتى، بمعنى أن الموت حياة بصورة لا نعلمها، فيكون مفهوم الآية هو نفي حياة الموتى عنه سبحانه وتعالى، وليس نفي الموت المنفي بقيوميته سبحانه، وهذا يؤدي إلى وجود أكثر من صورة للحياة، تنتقل المخلوقات منها وإليها، ولكنه سبحانه الحي الذي لا تتبدل حياته، ولا تتغير جل وعلا، وأستغفر الله العظيم إن كان في قولي هذا ما لا يليق شرعا.

---

١ سورة آل عمران: ٢.

٢ سورة الفرقان: ٥٨.

وإذا قلنا بذلك فلا يعارضه قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[1]، ظنا أن الآية تنفي حياة كثير من الأشياء التي لم تخلق من الماء، ولعل منها الجمادات.

ويجاب عن هذا: بأن "شيء" في الآية ليس على عمومه، بدليل حياة الجن وهم مخلوقون من نار، فيكون المقصود بالحياة في الآية ليس على عمومه كذلك، ولكن يقصد به الحياة المدركة التي يعلمها البشر، وليس الحياة الأخرى التي لا يعلمها إلا الله تعالى، والله أعلى وأعلم.

وعلى هذا المعنى يحمل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}[2].

فالحياة المنفية عن الأصنام والأوثان التي يعبدونها هي حياة الأحياء التي يعلمها البشر، وليس مطلق حياة، وخاطبهم الله بما يعلمون، لبيان فساد ما يعبدون من دونه سبحانه.

وأما الحياة التي لا يعلمها البشر، ومنها حياة الأموات فهي ليست حياة مطلقا بالنسبة للبشر، لخلوها من وصف الحياة المعهودة لديهم، فلم يخاطبهم الله بها، تماما كما يفهم من قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}[3]، ولسان القوم هو ما يفهمونه، ولو خاطبهم بغير لسانهم لانتفى البيان لأنهم لن يفهموا، وكذلك في مسألتنا هذه خاطبهم الله

١ سورة الأنبياء: ٣٠.

٢ سورة النحل: ٢٠، ٢١.

٣ سورة إبراهيم: ٤.

بالحياة التي يعرفونها، وهي المتعلقة بالماء، دون الحياة التي لا يعرفونها، والتي لا تتعلق بالماء.

ونخرج مما سبق بأن مفهوم الحياة ليس قاصرا على الصورة التي نعرفها، بل إن الجمادات جميعا لها حياة لا نعلم عنها شيئا، وعدم العلم ليس معناه عدم الوجود.

ولعلنا نستطيع كذلك أن نقول إن الموت ليس نقيض الحياة، بعد ترجيح وجود الحياة في الجمادات والأموات، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان.

مفهوم الموت

تحدثنا عن انقسام الحياة إلى قسمين ــ كما ترجح لدينا ــ مدركة وغير مدركة، ومن أجل ذلك فإن غالب ظننا أن الموت يقع في قسم الحياة غير المدركة، بما يغاير ما استقر في أذهاننا من أن الموت فناء أو عدم.

ومن أجل ذلك كان لزاما أن نبين الفرق بين معاني الموت التي وردت في القرآن الكريم حتى نستطيع فهم كل آية على وجهها الصحيح، أو ما يغلب على الظن أنه الصحيح، والله أعلى وأعلم.

ومن معاني الموت التي وردت في الآيات الكريمة: الوفاة، والهلاك، وكذلك الفناء.

وسوف نحاول فيما يلي بيان الفرق بين هذه المعاني وبين الموت، وكذلك العدم، والله الموفق.

الموت والوفاة

يقول المولى تبارك وتعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ}[1]، {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ}[2]، {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}[3]، {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى}[4].

ويقول جل في علاه: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ}[5]، {وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ}[6]، {وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ}[7]، {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}[8].

كما يقول سبحانه: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}[9].

---

١ سورة الأنفال: ٥٠.

٢ سورة الحج: ٥.

٣ سورة الزمر: ٤٢.

٤ سورة غافر: ٦٧.

٥ سورة الأنعام: ٦٠.

٦ سورة يونس: ١٠٤.

٧ سورة النحل: ٧٠.

٨ سورة السجدة: ١١.

٩ سورة الأنعام: ٦١.

يقول **الإمام القرطبي** في تفسيره: (قَالَ الْحَسَنُ: **الْوَفَاةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ**: وَفَاةُ الْمَوْتِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:" اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها"، يَعْنِي وَقْتَ انْقِضَاءِ أَجَلِهَا.

وَوَفَاةَ النَّوْمِ قَالَ اللهُ تَعَالَى:" وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ"، يَعْنِي الَّذِي يُنِيمُكُمْ.

وَوَفَاةَ الرَّفْعِ قَالَ اللهُ تعالى: "يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ"[1] .)[2].

ثم يقول في موضع آخر: (قوله تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}[3]:

فِيهِ أَرْبَعُ مَسَائِلَ: الْأُولَى قَوْلُهُ تَعَالَى: "اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها" أَيْ يَقْبِضُهَا عِنْدَ فَنَاءِ آجَالِهَا.

"وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها" اخْتُلِفَ فِيهِ، فَقِيلَ: يَقْبِضُهَا عَنِ التَّصَرُّفِ مَعَ بَقَاءِ أَرْوَاحِهَا فِي أَجْسَادِهَا "فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى" وَهِيَ النَّائِمَةُ فَيُطْلِقُهَا بِالتَّصَرُّفِ إِلَى أَجَلِ مَوْتِهَا، قَالَ ابْنُ عِيسَى وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْمَعْنَى وَيَقْبِضُ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِهَا، قَالَ: وَقَدْ يَكُونُ تَوَفِّيهَا نَوْمَهَا، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ عَلَى هَذَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ وَفَاتُهَا نَوْمُهَا.

---

١ سورة آل عمران: ٥٥.

٢ تفسير القرطبي.

٣ سورة الزمر: ٤٢.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ تَلْتَقِي فِي الْمَنَامِ فَتَتَعَارَفُ مَا شَاءَ اللهُ مِنْهَا، فَإِذَا أَرَادَ جَمِيعُهَا الرُّجُوعَ إِلَى الْأَجْسَادِ أَمْسَكَ اللهُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ عِنْدَهُ، وَأَرْسَلَ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ إِلَى أَجْسَادِهَا.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ﷺ: إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ إِذَا مَاتُوا، وَأَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ إِذَا نَامُوا، فَتَتَعَارَفُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَتَعَارَفَ "فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى" أَيْ يُعِيدُهَا.

قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: فَمَا رَأَتْهُ نَفْسُ النَّائِمِ وَهِيَ فِي السَّمَاءِ قَبْلَ إِرْسَالِهَا إِلَى جَسَدِهَا فَهِيَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَمَا رَأَتْهُ بَعْدَ إِرْسَالِهَا وَقَبْلَ اسْتِقْرَارِهَا فِي جَسَدِهَا تُلْقِيهَا الشَّيَاطِينُ، وَتُخَيِّلُ إِلَيْهَا الْأَبَاطِيلَ فَهِيَ الرؤيا الكاذبة)[1].

وهكذا نستطيع أن نقول إن الوفاة هي النوم، أو الموت الذي له عودة إلى الحياة الدنيا، بينما الموت لا عودة منه إلى الدنيا مرة أخرى.

١ تفسير القرطبي.

الموت والهلاك

يقول جل وعلا: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[1]، ولم يأت لفظ هالك إلا في هذه الآية الكريمة، وجاء بهذه الصيغة ليفيد القطع بأن كل شيء هو في حكم الفناء أو العدم لا محالة، ولا يملك القطع بهذا إلا من بيده مقاليد الأمور سبحانه.

بينما أتي لفظ هلك في هذه الآيات: {إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ}[2]، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}[3]، {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا}[4]، {هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}[5].

وقال جل شأنه: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[6].

ونلمح من هذه الآيات أن الهلاك يأتي بمعنى الموت، وأنه يقابل الحياة {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}، كما يأتي بمعنى الذهاب والزوال، كما في قوله: {هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}، وغير ذلك من المعاني كالخسران وغيره، مما ليس في مجال هذا البحث.

---

١ سورة القصص: ٨٨.

٢ سورة النساء: ١٧٦.

٣ سورة الأنفال: ٤٢.

٤ سورة غافر: ٣٤.

٥ سورة الحاقة: ٢٩.

٦ سورة هود: ١١٧.

وأما قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، فيفسر معناه **الإمام الرازي بقوله**: (اختلفوا في قوله: كل شيء هالك فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه.

ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعا به، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء، وإن كانت أجزاؤه باقية، فإنه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه، بل خروجه عن كونه منتفعا به.

ومنهم من قال: معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك في ذاته، فإن كل ما عداه ممكن الوجود لذاته، وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم، فكان قابلا للهلاك، فأطلق عليه اسم الهلاك نظرا إلى هذا الوجه)[1].

ونخلص من ذلك أن الهلاك موت ولكنه يشمل العاقل وغيره من سائر المخلوقات بما فيها من جمادات، حيث إن فيها حياة غير مدركة، فهلاكها انتهاء حياتها، ولسنا نرى أي معنى لهلاك الجمادات لو لم يكن فيها حياة، وإلا فما معنى هلاكها، الذي أخبر الخالق عنه، لأن الجمادات شيء، فليست مما يستثنى من الهلاك.

ولعل مما يساعد على هذا الفهم قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ}[2]، فقد وصف الخالق سبحانه الأرض قبل أن تخرج الزرع بالميتة، والمعنى أنها كانت ميتة وهي على حالتها كجماد، ومع هذا سوف يهلكها الله، فكأن هلاكها هو الموت، على

١ تفسير الرازي.

٢ سورة يس: ٣٣.

الوجه الذي تعارف الناس عليه، بمعنى أنه مقابل الحياة، **وهكذا يتضح أن الموت أخص من الهلاك، فكل هلاك موت وليس كل موت هلاك.**

ويمكن أن نفهم من هذا أيضا أن الهلاك من هذا الوجه يرادف الفناء، أو العدم.

ولا يرد على هذا القول أن الجنة والنار شيء، وهما لا يهلكان، فقد ورد في صحيح الإمام البخاري: قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} "إِلَّا مُلْكَهُ، وَيُقَالُ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ"[1].

يقول الإمام القرطبي: (قيل: يحتمل معنى قوله: {كل شيء هالك إلا وجهه} أي ما من شيء، إلا وهو قابل للهلاك فيهلك إن أراد الله به ذلك إلا وجهه أي إلا هو سبحانه، فإنه تعالى قديم والقديم لا يمكن أن يفنى وما عداه محدث، والمحدث إنما يبقى قدر ما يبقيه محدثه فإذا حبس البقاء عنه فني، ولم يبلغنا في خبر صحيح ولا معلول أنه يهلك العرش فلتكن الجنة مثله)[2].

١ صحيح البخاري.

٢ التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة.

الموت والفناء

في قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[1]، ما يدل على أن الفناء موت، كما في قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[2]، ولكن الله تعالى لا يستخدم لفظا مكان لفظ، بل إن لكل لفظ موضعه الذي لا يغني عنه فيه لفظ آخر أبدا، وهذا يدل على أن الفناء هنا لابد أن يكون له معنى زائد عن معنى الموت، ويمكن أن يفسره قوله تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[3].

فكون الفناء لا يبقى بعده إلا وجه الله تعالى يفيد أن الفناء يعنى العدم وليس مجرد الموت، وكأن هذا هو الذي يكون حال الصعقة، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}[4].

وعليه يكون الفناء والهلاك متعلق بكل شيء بما في ذلك الأموات، بمعنى أن كل شيء سيهلك بعد موته، وكل شيء هالك سيفنى بعد موته، ولكن هذا يكون حال الصعقة، والله أعلى وأعلم.

---

١ سورة الرحمن: ٢٦.

٢ سورة العنكبوت: ٥٧.

٣ سورة الرحمن: ٢٧.

٤ سورة الزمر: ٦٨.

الموت والعدم

العدم نقيض الخلق وليس نقيض الحياة، أي الحياة التي ندركها، ولما كان كل مخلوق حي، يكون العدم نقيض الحياة المدركة وغير المدركة، والتي هي صفة الخلق، ويدل عليه قوله تعالى: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[1]، والذي ليس بشيء هو العدم، ولأن الموت والحياة مخلوقان فليسا بعدم {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[2].

وقوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[3]، مع قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}[4]، يدل على أن كل مخلوق له حياة هذه الحياة يدل عليها التسبيح.

وهكذا يمكن أن نفهم أن الفناء هو العدم، وليس مجرد الموت، ولكنه يطلق على العقلاء، ويختص الهلاك بأنه الفناء الذي يشمل العقلاء وغيرهم، ولكن يغلب استعماله في غير العاقل، والله أعلى وأعلم.

---

١ سورة مريم: ٦٧.

٢ سورة الملك: ٢.

٣ سورة الأنعام: الآية ١٠٢.

٤ سورة الإسراء: من الآية ٤٤.

نخرج من هذا العرض أن الموت ليس فناء ولا عدما على الحقيقة، وإن كان يطلق عليه ذلك في لفظ الخالق فلأنه بالنسبة للبشر يُفني أو يُعدم الحياة المدركة بالنسبة لهم، ولكنه ليس كذلك على الحقيقة، بمعنى أنه ليس عدما حقيقيا، بل هو انتقال من حياة مدركة إلى حياة غير مدركة، فمن جهة عدم الإدراك فهو موت وليس بحياة، {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}[1]، ولكن من جهة الحقيقة فهي حياة لا يعلم حقيقتها إلا الله، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[2]، فالشهداء بعد مقتلهم أحياء كما أخبر الخالق سبحانه، ولا يوجد إطلاقا أي وجه صحيح لتأويل الآية أو إخراجها عن ظاهرها، **فدل ذلك على أن الموت هو في حقيقته انتقال من حياة إلى حياة.**

فإن قيل إن هذا خاص بالشهداء فيجاب عنه بأن الخصوص هو صفة الحياة بعد الموت، وليس أصل الحياة بعد الموت فالشهداء {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[3]، بينما بالنسبة لغيرهم يختلف وصف الحياة، كما يبينه قوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ

١ سورة النحل: ٢٠، ٢١.

٢ سورة آل عمران: ١٦٩.

٣ سورة آل عمران: ١٧٠.

أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ[1]، وكذلك قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[2].

فقد نفي الخالق سبحانه أن يُسمع أحد من المخلوقين الموتى في القبور، ولكن الذي يُسمعهم هو الله جل جلاله، ولو كان الموت بمعنى الفناء أو العدم لما أسمعهم عز وجل، لأنه عز وجل لا يخاطبنا بما يستحيل وجوده.

١ سورة غافر: ٤٦.

٢ سورة فاطر: ٢٢.

عالم القبور

في ظل الحقائق التي ذكرناها ــ عن الكون وعن الجمادات ــ يصبح للموت معنى آخر، ويصبح آية ودلالة، وليس مجرد نهاية لحياة قائمة، أو انتقال إلى حياة أخرى.

إن انتقال الفهم من النظر إلى الموت من خلال المشاهدة الحسية المجردة، إلى استحضار حقيقته، في ظل الإدراكات العقلية المستمدة من نصوص الشرع يختلف كثيرا.

فإن المشاهد الحسية المجردة تشير إلى الفناء والعدم، بما يعنى أن الموت يضع نهاية لكل ما يتعلق بالإنسان، وهذا الفهم الذي يتشدق به دعاة الوجودية، وغيرهم من أصحاب المقولات المادية، ومنها الدين أفيون الشعوب"[1]، هذا الفهم يؤكد في حقيقته ما جاء به الإسلام من أن الهداية من عند الله تعالى، وأن الإنسان مهما علا في مناحي الدنيا وعلومها فلا قدرة له على قطف ثمار الهداية إلا إذا تغمده الله تعالى برحمة منه {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[2]، والمعنى أن الهداية لا تتوقف على ذكاء الإنسان وتحصيله لمختلف العلوم، بل هي منحة من الله تعالى اختص بها أهل طاعته، والذين يعلمهم سبحانه على وجه اليقين، وأما هؤلاء الذين اغتروا وعاندوا بما وصلوا إليه من علم، بدلا

١ بمعنى أن نصوص الدين الغرض منها تخدير الناس وإلهاؤهم عن الأخذ بأسباب العلوم الدنيوية، وكل هذا باطل، لا علاقة للإسلام به من قريب أو بعيد.

٢ سورة القصص: ٥٦.

من أن يكون حافزهم إلى الطاعة، أصبح دافعهم إلى المعصية فقد طمس الله على عقولهم وقلوبهم، وكل حواسهم وتركهم في ظلمات الضلالة {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}[1].

ومن أعجب الأمور التي تدل على حياة الأموات ـــ في القبور ـــ ما يراه الناس في الأحلام والرؤى، والتي يلتقي فيها النائم أثناء الحلم أو الرؤية مع من مات، وقد يدور بينهما حديث بصورة أو أخرى"[2]، **يقول الإمام ابن القيم**: (وَقد دلّ التقاء أَرْوَاح الْأَحْيَاء والأموات أَن الحي يرى الْمَيِّت فِي مَنَامه، فيستخبره ويخبره الْمَيِّت بِمَا لَا يعلم الحي، فيصادف خَبره كَمَا أخبر فِي الْمَاضِي والمستقبل، وَرُبمَا أخبرهُ بِمَال دَفنه الْمَيِّت فِي مَكَان لم يعلم بِهِ سواهُ، وَرُبمَا أخبرهُ بدين عَلَيْهِ وَذكر لَهُ شواهده وأدلته.

وأبلغ من هَذَا أَنه يخبر بِمَا عمله من عمل لم يطلع عَلَيْهِ أحد من الْعَالمين، وأبلغ من هَذَا أَنه يُخبرهُ أَنَّك تَأْتِينَا إِلَى وَقت كَذَا وَكَذَا فَيكون كَمَا أخبر، وَرُبمَا أخبرهُ عَن أُمُور يقطع الحي أَنه لم يكن يعرفهَا غَيره، وَقد ذكرنَا قصَّة الصعب بن جثامة وَقَوله لعوف بن مَالك مَا قَالَ لَهُ"[3]، وَذكرنَا قصَّة ثَابت بن قيس بن شماس"[1] وأخباره لمن رَآهُ يدرعه وَمَا عَلَيْهِ من الدّين)[2].

---

١ سورة الجاثية: ٢٣.

٢ وقد حكى كثير من الأحياء مثل هذه الأمور.

٣ (وَصَحَّ عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن ثَابت عَن شهر بن حَوْشَب أَن الصعب بن جثامة وعَوْف ابْن مَالك كَانَا متآخيين قَالَ صَعب لعوف أى أخى أَيْنَا مَاتَ قبل صَاحبه فليتراءا لَهُ قَالَ أَو يكون ذَلِك قَالَ نعم فَمَاتَ صَعب فَرَآهُ عَوْف فِيمَا يرى النَّائِم كَأَنَّهُ قد اتاه قَالَ قلت أى أخى قَالَ نعم قلت مَا فعل بكم=

=قَالَ غفر لنا بعد المصائب قَالَ وَرَأَيْت لمْعَة سَوْدَاء فِي عُنُقه قلت أى أخى مَا هَذَا قَالَ عشرَة دَنَانِير استسلفتها من فلَان الْيَهُودِيّ فهن فِي قَرْني فَأَعْطوهُ إِيَّاهَا وَأعلم أَن أى أخي انه لم يحدث فِي أهلى حدث بعد موتى إِلَّا قد لحق بى خَبره حَتَّى هرة لنا مَاتَت مُنْذُ أَيَّام وَاعْلَم أَن بنتى تَمُوت إِلَى سِتَّة أَيَّام فأستوصوا بهَا مَعْرُوفا فَلَمَّا أَصبَحت قلت إِن فِي هَذَا لمعلما فَأتيت أَهله فَقَالُوا مرْحَبًا بعوف أهكذا تَصْنَعُونَ بتركة إِخْوَانكُمْ لم تقربنا مُنْذُ مَاتَ صَعب قَالَ فَأتيت فأعتللت بِمَا يعتل بِهِ النَّاس فَنَظَرت إِلَى الْقرن فأنزلته فأنتثلت مَا فِيهِ فَوجدت الصرة الَّتِي فِيهَا الدَّنَانِير فَبعثت بهَا إِلَى الْيَهُودِيّ فَقلت هَل كَانَ لَك على صَعب شَيْء قَالَ رحم الله صعبا كَانَ من خِيَار أَصْحَاب رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم هى لَهُ قلت لتخبرني قَالَ نعم اسلفته عشرَة دَنَانِير فنبذتها إِلَيْهِ قَالَ هى وَالله بِأَعْيَانِهَا قَالَ قلت هَذِه وَاحِدَة قَالَ فَقلت هَل حدث فِيكُم حدث بعد موت صَعب قَالُوا نعم حدث فِينَا كَذَا حدث قَالَ قلت اذْكروا قَالُوا نعم هرة مَاتَت مُنْذُ ايام فَقلت هَاتَانِ اثْنَتَانِ

قلت أَيْن أبنة أخى قَالُوا تلعب فَأتيت بهَا فمسستها فَإِذا هى محمومه فَقلت اسْتَوْصُوا بهَا مَعْرُوفا فَمَاتَتْ فِي سِتَّة أَيَّام

وَهَذَا من فقه عَوْف رَحمَه الله وَكَانَ من الصَّحَابَة حَيْثُ نفذ وَصِيَّة الصعب بن جثامة بعد مَوته وَعلم صِحَة قَوْله بالقرائن الَّتِي أخبرهُ بهَا من أَن الدَّنَانِير عشرَة وهى فِي الْقرن ثمَّ سَأَل اليهودى فطابق قَوْله لما فِي الرُّؤْيَا فَجزم عَوْف بِصِحَّة الْأَمر فَأعْطى الْيَهُودِيّ الدَّنَانِير وَهَذَا فقه إِنَّمَا يَلِيق بأفقه النَّاس وأعلمهم وهم أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ وَلَعَلَّ أَكثر الْمُتَأَخِّرين يُنكر ذَلِك وَيَقُول كَيفَ جَازَ لعوف أَن ينْقل الدَّنَانِير من تَرِكَة صَعب وهى لأيتامه وورثته إِلَى يهودى بمنام)، الروح لابن القيم.

١ (قصَّة ثَابت بن قيس بن شماس وَقد ذكرهَا أَبُو عمر بن عبد الْبر وَغَيره قَالَ أَبُو عمر ...عَن ثَابت ابْن قيس بن شماس أَن رَسُول قَالَ لَهُ يَا ثَابت أما ترضي أَن تعيش حميدا وَتقتل شَهِيدا وَتدْخل الْجنَّة قَالَ مَالك فَقتل ثَابت بن قيس يَوْم الْيَمَامَة شَهِيدا.

قَالَ أَبُو عَمْرو روى هِشَام بن عمار عَن صَدَقَة بن خَالِد حَدثنَا عبد الرَّحْمَن بن يزِيد بن جَابر قَالَ حَدثنِي عَطاء الْخُرَاسَانِي قَالَ حَدَّثتنِي ابْنة ثَابت بن قيس بن شماس قَالَت لما نزلت يَا أَيهَا الَّذين آمنو لَا تَرفعُوا أَصْوَاتكُم فَوق صَوت النَّبِي دخل أَبُو هابية وأغلق عَلَيْهِ بَابه فَفَقدهُ رَسُول الله وَأرْسل إِلَيْهِ

ومما لا شك فيه أن كلام الإمام ابن القيم يعتبر من قبيل الحقائق التي يلمسها الناس جميعا في حياتهم، ومع هذا فمنهم من لا يؤمن بها، ويذهب في تفسيرها مذاهب شتى، ليس لها من الحقيقة شيئ، ولكن فقط المكابرة والعناد.

ولو نظرنا إلى ما تمكن الإنسان بعقله المحدود من الوصول إليه، ومنه على سبيل المثال شبكة المعلومات (النت) وما ترتب عليه من معجزات هائلة، ومنها أن الإنسان يستطيع عن طريق التليفون في يده أن يعايش العالم كله وكأنه معه، فإذا كان هذا هو علم البشر، القليل المحدود، فكيف ساغ

يسْأَله مَا خَبره قَالَ أَنا رجل شَدِيد الصَّوْت أَخَاف أَن يكون قد حَبط عملى قَالَ لست مِنْهُم بل تعيش بِخَير وَتَمُوت بِخَير قَالَ ثمَّ أنزل الله {إِن الله لَا يحب كل مختال فخور} فأغلق عَلَيْهِ بَابه وطفق يبكي فَفَقدهُ رَسُول الله فَأرْسل إِلَيْهِ فَأَخْبرهُ فَقَالَ يَا رَسُول الله إِنِّي أحب الْجمال وَأحب أَن أسود قومى فَقَالَ لست مِنْهُم بل تعيش حميدا وَتقتل شَهِيدا وَتدْخل الْجنَّة قَالَت فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْيَمَامَة خرج مَعَ خَالِد بن الْوَلِيد إِلَى مُسَيْلمَة فَلَمَّا الْتَقَوْا وأنكشفوا قَالَ ثَابت وَسَالم مولى أبي حُذَيْفَة مَا هَكَذَا كُنَّا نُقَاتِل مَعَ رَسُول الله ثمَّ حفر كل وَاحِد لَهُ حُفْرَة فثبتا وقاتلا حَتَّى قتلا وعَلى ثَابت يَوْمئِذٍ ذرع لَهُ نفيسة فَمر بِهِ رجل من الْمُسلمين فَأَخذهَا فَبَيْنَمَا رجل من الْمُسلمين نَائِم إِذْ أَتَاهُ ثَابت فِي مَنَامه فَقَالَ لَهُ أوصيك بِوَصِيَّة فاياك أَن تَقول هَذَا حلم فتضعيه إِنِّي لما قتلت أمس مربى رجل من الْمُسلمين فَأخذ ذرعى ومنزلة فِي أقصي النَّاس وَعند خبائه فرس يستين فِي طوله وَقد كفا على الدرْع برمة وَفَوق البرمة رجل فأت خَالِدا فمره أَن يبْعَث إِلَى درعى فيأخذها وَإِذا قدمت الْمَدِينَة على الْخَلِيفَة رَسُول الله يَعْنِي أَبَا بكر الصّديق فَقل لَهُ أَن على من الدّين كَذَا وَكَذَا وَفُلَان من رقيقى عَتيق وَفُلَان فَأتي الرجل خَالِدا فَأَخْبرهُ فَبعث إِلَى الدرْع فَأتي بهَا وَحدث أَبَا بكر برؤياه فَأجَاز وَصيته قَالَ وَلَا نعلم أحدا أجيزت وَصيته بعد مَوته غير ثَابت بن قيس رَحمَه الله انْتهى مَا ذكره أَبُو عَمْرو) الروح لابن القيم.

١ الروح لابن القيم.

لهؤلاء إنكار علم الخالق سبحانه الذي لا يحيط به المخلوقون، إلا بما شاء سبحانه، {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[1].

وسوف ندخل إلى عالم القبور ونحن نستحضر معنا عالم الإنترت، لنرى من خلاله ما يمكن الاطلاع عليه من عالم القبور.

القبر هو أول منازل الموت، وهو السكن الذي نراه ولا نطلع على شيء منه، على الرغم من استطلاعنا له ليل نهار، وعدم خفائه على أحد.

فالقبر والموت مَعْلَمَان لشيء واحد في أذهاننا، ألا وهو انتهاء الحياة المنظورة، والانتقال إلى المجهول الذي لا ندركه ولا نراه، مع أنه هو الحياة الحق، وهكذا أصبح القبر فارقا بين عالمين، أحدهما لا نعلم عنه شيئا، على وجه اليقين، ولهذا نحاول في هذا البحث لملمة المعاني، من هذا النص وذاك عسى أن تقترب منا معالم الفهم، والله المستعان.

١ سورة البقرة: ٢٥٥.

القبر وعامل الوقت والزمن

نحن هنا نعبِّر بالقبر عن مرحلة انتهاء الحياة المدركة بالنسبة للبشر، مع أن الواقع أن هذه الحياة تنتهي بالموت وهو يسبق القبر، ولكن لأن الموت هو سبب دخول القبر، ولأن القبر هو المآل العاجل بعد الموت، فقد اكتفينا بالتعبير عنه، وبخاصة أن الزمن السابق على دخول القبر بعد الموت لا أثر له في شيء تقريبا.

وأول ما نطّلع عليه بعد دخول القبر أن عنصر الوقت قد أصبح لاغيا، أو لا شعور به {فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ}[1]، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا}[2]، وأصحاب الكهف: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}[3]، وقد أخبر الخالق سبحانه عنهم بقوله تعالى: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا}[4]، كما أخبر سبحانه في موضع آخر {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ

١ سورة البقرة: ٢٥٩.

٢ سورة الإسراء: ٥٢.

٣ سورة الكهف: ١٩.

٤ سورة الكهف: ٢٥.

سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}[1]، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ}[2].

ولأن القبر نهاية لدار الحياة الدنيا والتكاليف الشرعية، وبالتالي لم يعد الموتى معنيون بشيء، مما يجري في الحياة، فقد أصبح إدراكهم للوقت منعدما، وبخاصة وقد قال تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}[3]، كما قال تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}[4].

ولعلنا من هذين النصين ندرك أن عامل الوقت في الآخرة لا يدركه إلا الخالق سبحانه، ولهذا فهو يقسمه كيف يشاء، فلسنا نعلم أساس التقسيم، إلا ما أخبر عنه سبحانه، وهو فوق طاقة البشر، ولهذا لم يخاطبوا به"[5]، والله أعلى وأعلم.

---

١ سورة المؤمنون: ١١٢، ١١٣.

٢ سورة الروم: ٥٥.

٣ سورة الحج: ٤٧.

٤ سورة المعارج: ٤.

٥ ويشهد لهذا أيضا حديث (ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ»، قُلْنَا: وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: "أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ"، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؟ قَالَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ، ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ».

وانعدام الوقت ليس قاصرا على انعدام الإحساس به، بل هو عدم حقيقي، لأن ما لا نهاية له لا قيمة للتوقيت فيه، والحياة الآخرة حياة أبدية، حتى ولو كانت الأبدية تبدأ من بعد النفخة الأخرى، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}[1]، لأن كلا من الحياتين ــ حياة البرزخ أو حياة القبر والحياة الآخرة ــ يخرجان عن تقديرات البشر.

ولولا ما ورد في الآيات القرآنية من جواب من ذكرهم الخالق سبحانه عن مدة موتهم بقولهم: "يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ"، لما قلنا بانعدام الوقت، والله أعلى وأعلم. ولعل ما يستوقفنا في مسألة الوقت هذه أن عدم الشعور بمرور الوقت هو من عوامل الرحمة بالأموات، لأننا ندرك ذلك في الدنيا، فمن يجلس ساكنا ينتظر شيئا ما ـــ أي شيء ـــ يمر الوقت عليه ثقيلا شديدا، وكلما مضى منه بعضه ازدادت شدته ووطأته على من يجلس ساكنا ينتظر، حتى يصبح بعد ذلك عذابا ــ والعياذ بالله ـــ وكأن هذا السكون مع طول المكث وعدم الحركة يجعل خلايا الجسد تتيبس وتتعطل عن الحركة، وينعكس هذا على سائر الجسد بالمعاناة والألم الشديد، إلا من رحم الله.

وإذا كان هذا العناء يشعر به الناس في حياتهم الدنيا، ومهما طال الوقت فيها فهو قصير، فكيف بمن في القبور وتمر عليهم آلاف السنين، وأكثر، إن الشعور بالوقت في مثل هذه الحال لا يمكن أن يتحمله بشر قط ـــ بالحال التي نعرفها ـــ فهل كان انعدام الشعور بالوقت رحمة من الله تعالى بالأموات؟

---

١ سورة الزمر: ٦٨.

وهل يمكن أن يكون انعدام الشعور بالوقت خاصا بأهل الطاعة الذين يكونون في القبور كروضة من رياض الجنة، ولهذا لا يتعذبون بما يصيبهم من انتظار الوقت وتوقفه عن المرور تقريبا، لو كانوا يشعرون بالوقت.

وهل يمكن أن يكون عذاب القبر ـــ والعياذ بالله ـــ يتمثل في معاناة أهل الكفر والضلال، والتي تتمثل في الانتظار الذي لا نهاية له ، حيث لا يمر الوقت تقريبا، وياله من عذاب، وإن كان لا ينفي وجود غيره من العذاب أيضا، كما سنبينه بإذن الله تعالى.

القبر والجسد

من أهم الحقائق التي يطلع الناس عليها ــ بالنسبة لمن في القبور ــ حقيقة تحلل الأجساد المادية، وعودتها مرة أخرى ترابا {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[1]، **يقول الإمام الرازي**: (ففيه وجوه: أحدها: وهو الأقرب: ومنها نخرجكم يوم الحشر والبعث.

وثانيها: ومنها نخرجكم ترابا وطينا ثم نحييكم بعد الإخراج وهذا مذكور في بعض الأخبار. وثالثها: المراد عذاب القبر)[2].

ونتوقف هنا وقفة: نلاحظ أن الخالق سبحانه ذكر نشأة الإنسان من الأرض بأنها الخلق، "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ"، وكذلك كما في مواضع أخرى، {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}[3].

ولو أخذنا بالآيتين معها سنفهم أن هناك خلقا غير المرة الأولى، فهل معنى هذا أن الخلقين متساويين من كل وجه، أم أن هناك اختلاف؟

ونلمح ما يجيب عن هذا التساؤل في قوله تعالى: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}[4]، والمعنى أن الخلق الثاني ليس هو عين الخلق الأول، بل هو في حقيقته خلق جديد، فهو ليس خلقا من الأرض

---

١ سورة طه: ٥٥.

٢ تفسير الرازي.

٣ سورة الأنعام: ٩٤.

٤ سورة ق: ١٥.

كالخلق الأول، بل هو إخراج منها، ولهذا عبر جل في علاه بقوله تعالى: "نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى"، فوصف الخلق الثاني بأنه إخراج من الأرض.

والذي نريد الوصول إليه: أن أجساد الموتى التي تتحلل وتعود إلى التراب يمكن أن تتكون منها أجساد أخرى، بحسب دورة الحياة، حيث يصبح الجسد ترابا، يتغذى عليه النبات الذي يأكله الحيوان، ثم يأكلهما الإنسان، فتتكون خلايا جسده.

هذا وقد أثبت العلم أن تكون البترول في باطن الأرض عبارة عن المخلفات العضوية المتخلفة عن الميتة على مر العصور، وهذا يدل على أن الجسد المادي ما هو إلا قالب مؤقت يتعلق بالحياة الدنيا، والله أعلى وأعلم.

ومعنى هذا أن إعادة الخلق أو الإخراج ليس معناها أن يعود نفس جسد الميت إليه مرة أخرى، وإلا لكان معنى هذا تشابك مجموعة من الموتي في جسد واحد، وهذا غير صحيح، وعليه يكون الإخراج كما وصفه الخالق سبحانه خلقا جديدا، ولكن لنفس الموتى، فهو من جهة اختلاف التكوين خلق جديد، حيث لن يكون الجسد المادي هو نفس الجسد، ومن جهة أنه لنفس الشخص فهو إعادة خلق.

ولعل مما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}[1].

١ سورة النساء: ٥٦.

يقول **الإمام الرازي**: (وفيه سؤالان: السؤال الأول: لما كان تعالى قادرا على إبقائهم أحياء في النار أبد الآباد، فلم لم يبق أبدانهم في النار مصونة عن النضج والاحتراق، مع أنه يوصل إليها الآلام الشديدة، حتى لا يحتاج إلى تبديل جلودهم بجلود أخرى؟

والجواب: أنه تعالى لا يسأل عما يفعل، بل نقول: إنه تعالى قادر على أن يوصل إلى أبدانهم آلاما عظيمة من غير إدخال النار مع أنه تعالى أدخلهم النار.

السؤال الثاني: الجلود العاصية إذا احترقت فلو خلق الله مكانها جلودا أخرى وعذبها كان هذا تعذيبا لمن لم يعص وهو غير جائز.

والجواب عنه من وجوه: **الأول**: أن يجعل النضج غير النضيج، فالذات واحدة والمتبدل هو الصفة، فإذا كانت الذات واحدة كان العذاب لم يصل إلا إلى العاصي، وعلى هذا التقدير المراد بالغيرية التغاير في الصفة.

الثاني: المعذب هو الإنسان، وذلك الجلد ما كان جزءا من ماهية الإنسان، بل كان كالشيء الملتصق به الزائد على ذاته، فإذا جدد الله الجلد وصار ذلك الجلد الجديد سببا لوصول العذاب إليه لم يكن ذلك تعذيبا إلا للعاصي.

الثالث: أن المراد بالجلود السرابيل، قال تعالى: {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ}[1] فتجديد الجلود إنما هو تجديد السرابيلات، وطعن القاضي فيه، فقال: إنه ترك للظاهر، وأيضا السرابيل من القطران لا توصف بالنضج، وإنما توصف بالاحتراق.

---

١ سورة إبراهيم: ٥٠.

الرابع: يمكن أن يقال: هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع، كما يقال لمن يراد وصفه بالدوام: كلما انتهى فقد ابتدأ، وكلما وصل إلى آخره فقد ابتدأ من أوله، فكذا قوله: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}[1] يعني كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك أعطيناهم قوة جديدة من الحياة بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا، فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه.

الخامس: قال السدي: إنه تعالى يبدل الجلود من لحم الكافر فيخرج من لحمه جلدا آخر وهذا بعيد، لأن لحمه متناه، فلا بد وأن ينفد، وعند نفاد لحمه لا بد من طريق آخر في تبديل الجلد، ولم يكن ذلك الطريق مذكورا أولا والله أعلم)[2].

📖 **والذي يترجح لدينا**: أن الجلود تتبدل ومع هذا فهي جلودهم، وإذا تبدلت الجلود بجلود أخرى فمعناه أن الجسد المادي ليس مقصودا بذاته إلا في الحياة الدنيا، وأما بعد الموت فلا اعتبار له، وكأنه كان مرادا به فقط الجانب المادي في حياة الإنسان، وهذا الجانب لا يكون إلا في الدنيا، وبعد ذلك تنتهي الحياة المادية إلى حياة أخرى، وهذا هو المعنى الذي يفسر حياة الموتى بعد فناء أجسادهم، وهذا الذي نرجحه يتوافق مع القول الثاني للإمام الرازي، الذي يقول إن الجلد ليس جزءا من ماهية الإنسان، والله أعلى وأعلم.

---

١ سورة النساء: ٥٦.

٢ تفسير الرازي.

ومما يتعلق بمسألة تبدل الجلود قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[1]، يقول الإمام الرازي: (اعلم أن التبديل يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الذات باقية وتتبدل صفتها بصفة أخرى.

والثاني: أن تفنى الذات الأولى وتحدث ذات أخرى، والدليل على أن ذكر لفظ التبدل لإرادة التغير في الصفة جائز، أنه يقال بدلت الحلقة خاتما إذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}[2]، ويقال: بدلت قميصي جبة أي نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى، ويقال: تبدل زيد إذا تغيرت أحواله، وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل في الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير، ومنه قوله: "بدلناهم جلودا غيرها")[3].

والذي نتعلق به في هذه الآية أن مسألة التبديل مسألة يقينية وعليه يترجح لدينا أن التبديل يكون في الذات والصفات، وأن التبديل في الصفة هنا هو تبديل في الذات، لأنه تبديل في الخواص وهي جميعا صفات ذاتية، وليس تبديلا في وصف خارجي حتى نحمل عليه معنى التبديل في الصفة دون الذات، وسوف يترتب على هذا التبديل إنبات الأجساد يوم البعث، أو إخراجها حيث سيكون المكون المادي لها وهو الجسد ليس هو عين الجسد في الدنيا، كما أن الأرض ليست هي عين الأرض في الدنيا.

---

١ سورة إبراهيم: ٤٨.

٢ سورة الفرقان: ٧٠.

٣ تفسير الرازي.

ومما يساعد على هذا الفهم أن كل من يدخل الجنة سيكون على هيئة سيدنا آدم عليه السلام، ففي حديث الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: "فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الْآنَ"[1].

ومعنى هذا أن صفات الجسد سوف تكون مغايرة لصفاته الأرضية، لأن الحجم أضعاف ما كان عليه في الأرض، وإما أن يختلف الجسد بالكلية عن الجسد الأرضي، وفي كل من الحالتين لن يكون هو عين الجسد الأرضي، والله أعلى وأعلم.

ولعل هذه النصوص تشير إلى أن جسد الآخرة ليس له صفات الجسد الأرضي، إلا في الصورة فقط، بينما من جهة الخواص والصفات فهو مختلف، من جهة الإحساس، وقوة التحمل، وغير ذلك، ويؤيد هذا ما ورد في صحيح الإمام مسلم عن سيدنا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ»[2].

وفي رواية عند الإمام أحمد: "ضِرْسُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ الْبَيْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، كَمَا بَيْنَ قُدَيْدٍ إِلَى مَكَّةَ، وَكَثَافَةُ جِلْدِهِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ"[3].

ونفهم من هذه النصوص أن أجساد الكفار في الآخرة ستكون أكبر كثيرا مما وصفت به أجساد أهل الجنة "فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ وَطُولُهُ

١ أخرجه الإمامان البخاري ومسلم، وغيرهما

٢ صحيح مسلم.

٣ مسند أحمد.

سِتُّونَ ذِرَاعًا"، بينما أهل النار ضروسهم كجبل أحد، مما يعنى أن أجسادهم شيء مهول لا يتصوره عقل، أو أن هيأة أجسادهم تختلف عنها في الدنيا، كأن تصبح رؤسهم أضخم من الجبال ـ مثلاـ وأجسادهم صغيرة، وليس لدينا ما يمكن أن نقطع به في هذا الشأن.

ولكن الحق الذي لا جدال فيه أن هذه الصورة التي يعجز العقل عن تصورها، ليس معناها ــ بحال من الأحوال ــ أن هذه النصوص مجازية وليست حقيقية، لأنه كما بينا لا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لغرض، ولابد من وجود القرينة، وهنا لا يوجد أي سبب للعدول عن الحقيقة، كما لا توجد أي قرينة لحمل هذه النصوص على جهة المجاز، كأن يقال ــ على سبيل المثال ــ إن هذا يقصد به بيان ضخامة الأجساد، وليس مقصودا به وصف الحقيقة، لأن هذا التأويل مرجعه إلى قصور العقول، وليس إلى سبب حقيقي يوجب ذلك، وكما قلنا إن مثل هذه التأويلات ــ بالحمل على المجاز ــ لو أطلقت على هذا الوجه لتعطلت معاني كثير من نصوص القرآن الكريم، وهذا شيء في غاية البطلان.

ومن هنا كان النظر في ملكوت السماوات والأرض، والتفكر فيما ورائهما سبيلا إلى فهم هذه النصوص، واسنيعاب أنه لا توجد أي حاجة إلى المجاز في فهمها، بل هي حقيقة مؤكدة، تثبتها حقائق العلم الكونية، التي نطلع عليها في حياتنا الدنيا، والله أعلى وأعلم.

القبر والنفس والروح

كلما تفكرت في عالم القبور استحضرت في ذهني كيف أن الإنسان ـ وهو المخلوق الذي لم يؤت من العلم إلا قليلا ـ قد نجح في هذه المعجزة الهائلة، ألا وهي اختراع الإنترنت"[1]، والذي استطاع من خلاله أن يجعل العالم كله في قبضة يده.

وسوف نحاول تصور هذا المعنى ـ مهما كان هذا التصور ساذجا ـ الذي يمثله جهاز التليفون المتصل بالنت، لنرى جانبا من جوانب إبهاره وإعجازه.

هذا التليفون يمكنك في أي بقعة من الأرض ـ تقريبا ـ أن ترى بعينيك وتسمع بأذنيك أي حديث يجري في أي بقعة من العالم، بشرط توفر التقنية المطلوبة، فما دلالة هذا؟

بتصورنا الساذج، والذي لا يقارن بسذاجة كل علماء الدنيا، بالنسبة لإدراك ما خفي عنهم، من أسرار النفس والكون نقول: إن معايشة أحداث الدنيا تتم عن طريق الأقمار الصناعية، والتي يتم بواسطتها عن طريق الأشعة، أو الموجات الكهرومغناطيسية، أو غير ذلك، نقل هذه الأحداث إلى كل بقاع الدنيا.

---

١ عبارة عن شبكة كبيرة جدا من الكابلات تمتد عبر الدول والقارات تحت الأرض والمحيطات، وعن طريق هذه الكابلات يتم توصيل الأجهزة العملاقة الموجودة في غرف ضخمة، وغير ذلك مما لا علم لي به،

فهل هذه الأقمار خلقت الأشعة أو الموجات من عدم، أم أنها موجودة، ودور الأقمار هو كيفية الاستفادة منها؟

اليقين بالنسبة لنا أن الحدث، أو صورة الأشخاص المنقولة عبر هذه الوسائل لم يبتدعها البشر، بل هي من خصائص الأشياء التي خلقها الله تعالى، ودور الإنسان يتوقف عند كيفية الاستفادة منها فقط لا غير.

فما هو دور الإنسان؟ إنه استطاع أن يُوجد الوسيلة لبث الحدث وإرسالة، وكذلك استطاع الوصول إلى الكيفية التي يستقبله بها، أما الحدث ذاته، أو الأشخاص أنفسهم فليس له أي دور فيما يتعلق بذواتهم، أو الأشعة والموجات التي تصدر عنهم.

بمعنى أننا يمكن أن نقول إن كل أحداث الدنيا وما عليها، له أشعته وموجاته الخاصة به، وهي موجودة قبل أن يعلم الإنسان عنها شيئا، ثم أمكنه الاطلاع عليها، بعد أن تعلم كيف يتعامل معها.

ومن هنا نستكمل تصورنا فنقول: إن كل ما يجري في الدنيا منذ بدء الخليقة مسجل وموجود، لا يتغير على صورة أشعة وموجات ــ لا أدري عنها شيئا فلست من أهل هذا التخصص ــ وهذه الأشعة والموجات لا تفنى أبدا، وأن الإنسان قد استطاع بالفعل أن يراها، ويستفيد من وجودها، عندما توصل إلى وسيلة الاستقبال المناسبة لها.

ونخلص من هذا التصور ــ الساذج ــ إلى أن التليفون الذي يحمله الناس ما هو إلا وسيلة مكنتهم من سماع ما يجري في الأشعة والموجات التي تحيط بهم في كل مكان، وكذلك مكنتهم من رؤية الأحداث كلها التي تعبر عنها هذه الأشعة والموجات.

هذه النتيجة معناها أن كل البشر الذين نراهم عن طريق التليفون، هم حقيقيون، وأنهم موجودون بالفعل، أو وجدوا من قبل، وكل هذه الملايين التي نراها عبر التليفون أو المليارات، هي حولنا نحن وهي معنا نحن، وليست في التليفون، والتليفون هو فقط وسيلة سماعنا لهم ورؤيتنا لهم.

وإذا صح هذا التصور، وهو صحيح حتى ولو أخطأتُ وصفه، فمعناه أن البشر جميعا بعد موتهم موجودون في الحياة بيننا، على صورة أشعة وموجات، أو ما في معناها، وقد تأكدنا يقينا من ذلك، بطريق النت، وهو أن الإنسان بعد فناء جسده موجود، وأن كل شيء مخلوق له صورة أو ذات مادية، وذات أخرى هي نفسه، وليست أي شيء آخر، هذه الذات الأخرى ليست جسدا وليست مادة، ولكنها كالطيف والأشعة التي لا تحتاج إلى أي حيز، بل لعلها لا وزن لها على الإطلاق"[1]، والله أعلى وأعلم.

إن المثال الذي استرشدت به، قد أكون جاهلا به بالكلية، فلست ممن يفهمون شيئا في اختراع الإنترنت، ولكن الذي لا يمكن إنكاره أنه حقيقة موجودة، وأن كل ما قلته من حقائق ملموسة تتعلق به، يمكن الخروج منها بنتائج هائلة فيما يتعلق بعالم القبور، حتى ولو كانت طريقة عرض المثال مغايرة لما قلته بالكلية، فالنتيجة التي أريد الوصول إليها لن تتغير مطلقا.

١ ويذهب البعض إلى القول بأن النفس لها وزن، مهما كان ضئيلا لكنه موجود، وقيل إن بعض التجارب أجريت عند موت الإنسان، ووجدت اختلافا في وزنه، قبل موته مباشرة، وبعد موته مباشرة، وهو ما أطلق عليه وزن النفس التي غادرت الجسد، والبعض قال إنها وزن الروح، وكل هذا لا علم لي بحقيقته.

لأن هذه النتيجة متيقنة عن طريق النصوص الشرعية، والتي تتحدث عن الجسد والنفس والروح، وقد تأكدت عن طريق النت بصورة أو بأخرى.ومن هذه النصوص قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}[1]، {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ}[2].

{يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[3]، {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}[4].

وفي الحديث: (عَن أبي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ قَالَ رَسُول الله ﷺ أَربع من كن فِيهِ حرمه الله تَعَالَى على النَّار وَحفظه من الشَّيْطَان من ملك نَفسه حِين يرغب وَحين يرهب وَحين يغْضب وَحين يَشْتَهِي وَأَرْبع من كن فِيهِ نشر الله عَلَيْهِ رَحمته وَأدْخلهُ فِي محبته من آوى مِسْكينا ورحم ضَعِيفا ورفق بالملوك وَأنْفق على الْوَالِدين

قَالَ أَبُو عبد الله فَالنَّفْس فِي هَذَا الْجَسَد ومعدنها فِي الْبَطن ثمَّ هِيَ متفشية فِي جَمِيع الْجَسَد، وَالروح معدنه فِي الرَّأْس ثمَّ هُوَ منفش فِي جَمِيع الْجَسَد، والجسد قالب للروح وَالنَّفس كليهمَا، والحياة مَوْضُوعَة فِي كليهمَا، وحياة

---

١ سورة الإسراء: ٨٥.

٢ سورة السجدة: ٩.

٣ سورة الفجر: ٢٧ – ٣٠.

٤ سورة القيامة: ١، ٢.

الرّوح أقوى وَأكْثر وأخلص وأصفى من حَيَاة النَّفس، وَالدَّلِيل على ذَلِك أَن الرّوح يَأْمر بِالطَّاعَةِ وَذَلِكَ لِأَن حَيَاته أَكثر وَأقوى)[1].

هذه النصوص تتحدث عن جانب من خلق البشر، لم نره ولم نطلع عليه، لأنه غير مرئي، ألا وهو النفس والروح، ولا يوجد ما يمنع مطلقا من أن تكون النفس شبيهة بتلك الأشعة والموجات التي ترسل وتستقبل عن طريق الأقمار الصناعية، حتى ولو لم تكن هي نفسها تلك الأشعة والموجات.

كذلك أكاد أجزم ــ على ضوء هذه النصوص ــ أن النفس ليست هي الروح، ومرجع هذا اليقين ــ بالنسبة لي ــ أن القرآن الكريم لا يمكن مطلقا أن يأتي بلفظ ليعبر به بدلا عن لفظ آخر، إلا إذا كان لفائدة متيقنة، حتى ولو لم نعرفها إلا بعد حين، فليس في القرآن الكريم مترادفات تامة، لنفس المعنى أبدا، وأن كل من ذهب إلى وجود المترادفات التامة إنما ذهب إلى ذلك بسبب عجزه عن إدراك الفرق بين اللفظين، وليس لعدم وجود الفرق في الحقيقة، وعلى هذا لا يمكن أن تكون النفس والروح شيئا واحدا، وأي شيء يقال للتفرقة بينهما سيؤدي بالضرورة إلى جعلهما شيئين وليسا شيئا واحدا.

ولكن قد يحدث في الاستخدام أن ينوب أحد اللفظين عن الأخر، ولكن ليس على سبيل الحقيقة، كما ينوب لفظ الإسلام عن لفظ الإيمان أحيانا، أو العكس، أو الفقير عن المسكين أو العكس، وغير ذلك من الألفاظ المشابهة، وكل هذا موجود في نصوص الشرع، وله حكمة من وجوده، والعلم بها يخضع للاجتهاد، والبحث وطلب الهداية من الله تعالى، ولكن

١ نوادر الأصول في أحاديث الرسول لأبي عبد الله، الحكيم الترمذي (المتوفى: نحو ٣٢٠هـ).

في كل الأحوال نرى أن القول بأن النفس والروح شيئان مختلفان، هو الحق والصواب، والله أعلى وأعلم.

ولعل مما يساعد على هذا الفهم قوله تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[1]، **يقول أهل العلم**: (قال: تقبض أنفس الأموات وترسل أنفس الأحياء إلى أجل مسمى فلا تقبضها)[2]، ويلاحظ في هذا التفسير أن المقبوض هي الأنفس، بينما يقول **الإمام الطبري**: (ذكر أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فيتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده وحبسها، وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى أجل مسمى وذلك إلى انقضاء مدة حياتها)[3]، وهذا الذي ذهب إليه **الإمام الطبري** يدل على أن التخبط بين حقيقة النفس والروح كان موجودا منذ عصور الإسلام الأولى، ومع هذا لم يرد عن رسول الله ﷺ ما يرفع هذا اللبس، وكأن القصد من ذلك أن يضطر أهل الإسلام إلى البحث

١ سورة الزمر: ٤٢.

٢ تفسير مقاتل بن سليمان

٣ تفسير الطبري

والتفكر في مخلوقات الله تعالى، ولا يركنوا إلى الجمود والغفلة، والله أعلى وأعلم.

ومما يدل على قولنا هذا ما ذهب إليه **الإمام الماتريدي** في تفسيره، **حيث قال**: (قال ابن عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما -: كل نفس لها سبب تجري فيه؛ فالتي قضي عليها الموت فتجري في الجسد كله، ثم يقول: لكن لم يفهم مما ذكر ابن عَبَّاسٍ تأويل الآية.

وعن **سعيد بن جبير** قال: يجمع بين أرواح الأحياء وبين أرواح الأموات فيتعارف ما شاء الله أن يتعارف، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجسادها، ويعلق قائلا: وبهذا - أيضًا - لم يفهم شيء من تأويل الآية.

ثم يقول: وقال الكلبي: النائم متوفى حتى يرد الله إليه روحه، فأما التي يتوفاها حين موتها فإنه يقبض الروح والنفس جميعًا، ويرسل التي يتوفاها في منامها حتى تبلغ أجلها المسمى، وهو الموت، ويقال: إنما يقبض الله من النائم النفس، والروح في الجسد لم تفارقه، فإذا قبض الله الروح ذهبت النفس مع الروح.

ويعلق قائلا: وهذا الذي ذكره الكلبي أقرب إلى تأويل الآية من الذي ذكره أُولَئِكَ، وأصله: أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - جعل في الأجساد أشياء وأرواحًا يحيي الأجساد في حال نومها على الهيئة التي كانت من قبل، ليس بها أثر الموت،

لكنها لا تدرك شيئًا، ولا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئًا، وبها آثار الحياة؛ يدلنا هذا على أنها في حال النوم قد ذهب منها، وخرج ما به تدرك الأشياء، وبقي منها ما به تحيا، وهو الروح، فإذا خرجت الروح منها، وإن كانت لا تدرك شيئًا على الهيئة التي كانت من قبل، دل ذلك على أن الذي به تدرك الأشياء غير الذي به تحيا؛ والله أعلم؛ ألا ترى أنها في حال النوم تلك الأنفس الدراكة حيث كانت تتألم وتتلذذ، وتقضي الشهوات وهي في أقصى الدنيا، هذا كله يدل على ما ذكرنا، والله أعلم.

ثم على هذا جائز أن يكون ما ذكر من عذاب القبر أنه إنما يكون على تلذذ الأنفس الدراكة، لا على الروح؛ على ما ذكرنا من تألمها وتلذذها بعد خروجها من الأجساد ومفارقتها عنها، والله أعلم)[1].

فكما قال أهل العلم إن النوم هو الموتة الصغرى، ومع هذا فالجسد أثناء النوم لم تفارقه الروح، بدليل تنفسه وحركته، وغير ذلك، مما يشير إلى بقاء الروح مع الجسد النائم، بينما النفس قد غادرته كما تنص عليه الآية الكريمة.

وهكذا فإن ما ذهب إليه الإمام الماتريدي في الدقة والإتقان والتفصيل والبيان، والله أعلى وأعلم.

وإذا ما استقر هذا الفهم، أي أن الجسد المادي غير النفس، وغير الروح نقول: إن الميت إذا أدخل القبر يكون قد فارقته الروح تماما، وهي سر من

١ تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة. لأبي منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ).

أسرار الخالق سبحانه، ومع هذا قد لا يكون من هذا السر أن لكل إنسان روحه الخاصة به، وبالتالي يكون جمعها ـ أي جمع لفظ الروح ـ حيث نقول أرواح جمعا حقيقيا، وقد يكون الجمع مجازيا، فتكون الروح كُلاً لا يتجزأ، وبالتالي يكون إطلاق أن لكل إنسان روحه الخاصة به مجاز وليس حقيقة، والذي نراه أن كون الروح سرا لا يمنع أيا من المعنيين، والله أعلى وأعلم.

وهكذا لا يدخل القبر إلا الجسد والنفس، وسرعان ما يفنى الجسد، ومهما كان الوقت الذي يستغرقه حتى يفنى، أو بتعبير أصح يبلى، فهو وقت قصير مقارنه بانعدام التوقيت بالنسبة لمن في القبور، سواء أكان انعداما كليا، أو أنه انعدام مجازي، بمعنى أن التوقيت لا قيمة له مطلقا، في ظل البعد الهائل بين توقيت البشر وبين توقيت الخالق سبحانه، حيث اليوم كألف سنة، ومما لا شك فيه أن ذكر القرآن الكريم لهذه الحقيقة ـ أن اليوم عند الله كألف سنة مما يعده البشر ـ لابد له من فائدة، فإن الخالق سبحانه لا يذكر شيئا إلا لحكمة، ولعل الحكمة تنجلي ويدركها الإنسان ولو بعد حين.

وفي القبر وبعد أن يفنى الجسد تبقى النفس ولا تفنى ولا يغيرها البلى، وهذه النفس هي كل إنسان بذاته، دون أي تداخل، لا كما تتداخل الأجساد المادية، وكذلك ليست شيئا واحدا، بل لكل إنسان نفسه، وليست كما يمكن أن تكون الروح"[1]، بل هي الشيء الذاتي الذي لا يمثل إلا صاحبه،

١ فقد تكون الروح واحدة في المخلوقات جميعا، وليست خاصة بكل مخلوق على حدة، كما النفس، وكما الجسد، وقد ذهب إلى هذا المعنى بعض أهل العلم بالفعل، والله أعلى وأعلم.

وهي ليست سرا من أسرار الخالق كالروح، ولهذا لعل الإنسان بطريق العلم يستطيع أن يصل إلى حقيقتها، أو إلى بعض الحقيقة، فلا يوجد نص شرعي يمنع ذلك، أي معرفة أسرار النفس.

هذه النفس ليست مختصة بمكانها في القبر بالضرورة، وقد تكون كذلك، فإن بقاءها في المكان الذي قبرت فيه، أو انتقالها منه وعودتها إليه مرة أخرى ليس ممتنعا، ولا يترتب عليه محذور ما.

كما يمكن أن يكون القبر بالنسبة للنفس كمكان جهاز الإرسال بالنسبة لوسائل الاتصال في الدنيا، بمعنى أنه المكان الذي تفارق فيه الجسد وليس أكثر، وبهذا المعنى لو افترضنا ـ جدلا ـ أن القبر دفن فيه ملايين الأشخاص فإن هذا لا تأثير له مطلقا حيث لا يوجد تزاحم ألبتة، لأن الجسد المادي يصير ترابا، **بينما النفس لا حيز لها ولا وزن، سواء أبقيت في نفس القبر أم انتقلت منه.**

وأما قوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[1]، فيمكن حمله على الحقيقة، كما يمكن حمله على المجاز دون أن يؤثر في النتيجة بشيء، فيكون المعنى أن الله يبعث من هم مازالوا في القبور فعلا، وهم من دفنوا فيه، وقد يكون المعنى أن الله يبعث من قبروا، حتى ولو كانت النفوس قد غادرت القبر ولم تمكث فيه، فكأنها فيه على جهة المجاز، والله أعلى وأعلم.

فمن حيث الحقيقة فلا يوجد ما يمنع مطلقا أن مَنْ في القبور يبقون في القبور إلى قيام الساعة، وأن هذه القبور لو طمست وأعيد بنائها شيئا آخر

١ سورة الحج: ٧.

فهي لم تفقد صفتها أنها قبور لكل من دفن فيها، وتظل قبورهم مهما تغير بناؤها، لأن النفس كما قلنا لا تحتاج إلى حيز، وليس لها وزن مؤثر، فتبقى في قبورها وأماكنها، حتى ولو صارت القبور قصورا بعد ذلك، ويمكن الاسترشاد بالتليفون والنت، والذي يحمل الدنيا بأكملها في كل مكان دون اختلاف في الحدث المنقول، مهما تغير المكان.

أما إنْ حُمل لفظ القبور على وجه المجاز، فيكون المعنى أن كل من مات فقد قبر، بمعنى أن جسده المادي قد عاد إلى الأرض، حتى ولو حرقوا جثته فهو في معنى القبر، لأن الجسد أصبح رمادا، وكذلك الغرقى وغيرهم، تتحلل أجسادهم وتعود إلى الأرض مرة أخرى لا محالة، وعملية حرق الأجساد لا تختلف مطلقا عن دفنها حتى تبلى، ففي الحالتين هي رماد، ولكن الفارق فقط هو الامتثال لتعاليم الشرع، والذي أمر بتكريم الميت ودفنه.

وهكذا يمكن أن نقول إن كل من مات قد قبر، وأن كل مكان تسكنه النفس فهو قبرها، حتى ولو كان المكان الذي أحرق فيه الجسد، أو غرق فيه، أو غير ذلك.

ولعل ما ذكره **الإمام ابن حزم** لا يتعارض مع ما نقوله عن وصف النفس، **حيث يقول**: "قَالَ أَبُو مُحَمَّد بن حزم وَذهب سَائِر أهل الْإِسْلَام والملل المقرة بالمعاد إِلَى أَن النَّفس جسم طَوِيل عريض عميق ذَات مَكَان جثة متحيزة مصرفة للجسد قَالَ وَبِهَذَا نقُول قَالَ وَالنَّفس وَالروح اسمان مُتَرَادِفَانِ لِمَعْنى وَاحِد ومعناهما وَاحِد"[1].

١ الفصل في الملل والأهواء والنحل.

فوصفه لها بالتحيز يقصد به أنها تأخذ شكل الإنسان، الذي هي نفسه كما في الصورة المنقولة بالنت تماما، وأما قولنا بعدم تحيزها فنقصد به أنها لا تحتاج إلى حيز تشغله، وبهذا ينتفي التعارض، فليس المقصود هو لفظ التحيز بل المعنى.

وأما قوله بترادف النفس والروح، فلسنا نوافقه فيه، وإن كان الأمر يبقى غيبا تاما بالنسبة لكل من القولين، إلا أن يأذن الله بكشف حقيقة النفس، واختلافها عن الروح، والله أعلم.

عجب الذنب

لعل من أعجب الحقائق وأكثرها تحديا ما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ"[1].

يقول **الإمام ابن حجر**: (عجب الذنب منه خلق وعن أبي هريرة قال إن في الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبدا فيه يركب يوم القيامة قالوا أي عظم هو قال عجب الذنب وفي حديث أبي سعيد عند الحاكم وأبي يعلى قيل يا رسول الله ما عجب الذنب قال مثل حبة خردل)[2].

ويقول **الإمام ابن عبد البر**: (وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّفْظَ فِي ذَلِكَ لَفْظُ عُمُومٍ يُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ وَاللهُ أَعْلَمُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ كُلُّ مَنْ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ فَإِنَّهُ لا يُؤْكَلُ مِنْهُ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَإِذَا جَازَ أَنْ لا تَأْكُلَ الْأَرْضُ عَجْبَ الذَّنَبِ جَازَ أَنْ لا تَأْكُلَ الشُّهَدَاءَ)[3].

فهذا الحديث يخبرنا خبرا يتعارض مع ما يقول به العقل، ويتعلق بصفات الجسد، فالعقل يحكم بأن الجسد كله سوف يبلى ويصير ترابا، بينما الحديث يؤكد أن كل ما يتركب منه الجسد البشري سوف يبلى ويصير ترابا، إلا هذا العظم.

---

١ أخرجه الإمامان البخاري ومسلم، وغيرهما.

٢ فتح الباري لابن حجر.

٣ الاستذكار لابن عبد البر.

ويستطيع كل من أراد الطعن في الشريعة أن ينفذ من خلال هذا الحديث، والذي يعتبر في أعلى درجات الصحة بالنسبة للأحاديث ككل.

فمثل هذا الخبر لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال النصوص الشرعية، التي حفظها الله تعالى، أو من خلال العلم ولا ثالث لهما، وعندما أخبر الرسول ﷺ عن ذلك لم يكن هناك من العلوم ما يسمح بمثل هذا الخبر، ولهذا فهو دليل صدقه ﷺ وأنه مرسل من خالق الخلق سبحانه وتعالى، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[1].

وما أسهل لمن أراد الطعن أن يثبت خلاف ما جاء به الخبر، وبخاصة أنه أمر مادي ملموس، لا مجال للبس فيه، فهل استطاعوا ذلك؟

لم أسمع عن شيء من هذا القبيل مطلقا، وسبحان من له الخلق والأمر تبارك وتعالى.

والذي نريد أن نذكره بخصوص عجب الذنب أنه عظم من عظام الجسد المادي، ولهذا فهو يتعلق بالجسد المادي وليس بالنفس أو الروح ــ إذا قلنا إنهما مختلفان ــ ومن أجل ذلك نعتقد ــ والله أعلم بالصواب ــ أن عجب الذنب هو الذي يبعث منه الجسد المادي بعد النفختين {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ}[2]، (ويُعْنَى بهذه النفخة، نفخة البعث، وقوله (فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ) يعني من أجداثهم، وهي قبورهم)[3].

---

١ سورة الملك: ١٤.

٢ سورة يس: ٥١.

٣ تفسير الطبري.

ونتوقف هنا لنتفكر في معنى الحديث بصورة زائدة عما هو مذكور **فنقول**: أليس معنى أن جسد الإنسان يبلى أنه يكون ترابا، وعجب الذنب الذي يكون مثل حبة الخردل في الصغر، يصعب العثور عليه بين التراب، بمعنى أنه يصبح بعد تحلل سائر الجسد حوله كالتراب تقريبا، وبهذا المعنى يمكن أن يسري عليه ـــ تجوزا، ومجازا ـــ ما يسري على سائر الجسد، فلو أطلق عليه أنه يصير ترابا لكان جائزا، ولكن تخصيصه بالذكر يدل على أن كل التراب يأخذ حكم الفناء إلا عجب الذنب، لا يفنى أبدا، ولفظ تأكله الأرض في غاية الدقة والدلالة على هذا المعنى، لأن الشيء المأكول يصبح في حكم الفناء أو العدم، فيكون معنى أكل الأرض لسائر الجسد إلا عجب الذنب أن تراب الجسد بعد تحلل الجسد يفنى حيث يذهب إلى أشياء أخرى، أو أجساد أخرى، بينما عجب الذنب لا يمكن أبدا أن ينتقل إلى شيء آخر أو جسد آخر مهما جرى عليه من أحداث، فيكون ـــ مثلا ـــ ليس كسائر التراب يتأثر بالماء والحرارة، أو غير ذلك من المؤثرات البيئية، بل هو جوهر لا يتغير ولا يتبدل مهما جرى عليه من مؤثرات، وبالتالي لا يدخل أبدا في أي مكون آخر أو ينتقل إليه بل يظل كما هو، حتى لو اختلط بأي شيء آخر، لا يتأثر ولا يتفاعل، ويبقى كالمحفوظ في هذا الشيء الآخر، الذي حمله حتى يفنى الشيء الآخر هذا ويتفتت، فيعود عجب الذنب كما هو حرا طليقا، دون أي تأثر أو تغير، والله أعلى وأعلم.

ولعله هو الذي يحمل ذاكرة أو خصائص الجسد المادي الترابي، الذي أبلته القبور والذي يخص الإنسان صاحب عجب الذنب وحده، والله أعلى وأعلم.

ولو صح هذا المعنى فإننا يمكن أن نفهم منه كيف أن الأرض لا تأكل أجساد الشهداء، مع أنهم يدفنون في المقابر ولا نرى أجسادهم بعد ذلك، فيمكن حمل المعنى على أن الأرض لا تأكل أجسادهم أي أن تراب أجسادهم التي تحللت لا يمكن أبدا أن ينتقل إلى شيء أو جسد آخر مطلقا"[1] بل يبقى ترابهم خالصا لهم مهما جرى عليه من تفاعلات وأحداث تماما كعجب الذنب، حتى يبعثهم الله يوم القيامة، والله أعلى وأعلم.

ولكن يجب أن نلاحظ أنه لا يوجد نص يقول إن أجساد الشهداء لا تأكلها الأرض، وإنما النص هو أنهم {أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[2]، ولسنا نرى أن هذا النص يوجب ذلك، بل الحق الذي لا مراء فيه أنهم أحياء، حياة غير حياتهم الدنيا، وبالتالي لا يوجد سبب على الإطلاق يوجب أن نستصحب مع هذه الحياة وجود الجسد الدنيوي، والذي يحتاج إلى التغوط والتبول وغير ذلك، **فإن قيل إن أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض، فالجواب هو خصوصية الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.**

---

١ ويغلب على ظني أن هذا المعنى له اعتبار حقيقي مقبول، لأنه لا يتعارض مع النص، ومع هذا لا ينفي تحلل الجسد، والله أعلى وأعلم.

٢ سورة آل عمران: ١٦٩.

يقول **الشيخ الألباني**: (ليس هناك دليل في الشرع يخبرنا أن أجساد الشهداء لا تفنى كأجساد الأنبياء، عندنا نص أن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، مثل هذا النص بالنسبة للشهداء لا يوجد إطلاقاً، لكن الذي وقع أن في التاريخ الإسلامي الأول بسبب حفريات اكتشفوا جثث بعض الشهداء كما هي، هذا صحيح وقع.

لكن هذا لا يعطينا قاعدة، أولاً: أن كل شهيد لا يبلى جسده، بل قد وجدت بعض الأجساد لغير شهداء، وهذا كما قلت آنفاً يجوز تكون إما الأمر يعود إلى طبيعة الأرض، أو أن الله عز وجل العليم بأحوال الموتى فقد يكرم بعضهم، بأن يبقي جسده كما كان في حياته، تكون كرامةً من الله لذاك الإنسان، سواء كان شهيداً أو كان صالحًا غير شهيد، لكن ما يجوز أن نأخذ من ذلك قاعدة، فلا نقول على الله ما لا نعلم، نقول: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، أما غير الأنبياء فلا دليل معنا بأن أجسادهم تبقى).

وبخصوص أجساد الأنبياء يقول: (اعلم أن الحياة التي أثبتها هذا الحديث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إنما هي حياة برزخية، ليست من حياة الدنيا في شيء، ولذلك وجب الإيمان بها، دون ضرب الأمثال لها، ومحاولة تكييفها وتشبيهها بما هو المعروف عندنا في حياة الدنيا، هذا هو الموقف الذي يجب أن يتخذه المؤمن في هذا الصدد: الإيمان بما جاء في الحديث، دون الزيادة عليه بالأقيسة والآراء، كما يفعل أهل البدع الذين وصل الأمر ببعضهم إلى ادعاء أن حياته ﷺ في قبره حياة حقيقية! قال: يأكل ويشرب

ويجامع نساءه!!. وإنما هي حياة برزخية لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى)[1].

أما بالنسبة للشهداء فيمكن أن تكون حياتهم مختلفة عن حياة باقي الأموات، في أنهم لا يفارقهم عجب الذنب كما يفارق باقي الأموات، وإذا كان عجب الذنب هو الذي يركب عليه الجسد يوم القيام فلعل الشهداء تركب لهم الأجساد بعد استشهادهم، هذه الأجساد ليست هي أجساد الدنيا، ولكنها أجساد مادية أيضا ولكنها غير مرئية للإنسان، فليس كل ما هو مادي يمكن للإنسان رؤيته، بل يمكن أن توجد أشياء مادية تعجز عين الإنسان عن رؤيتها، تماما كما توجد أصوات تعجز إذن الإنسان عن سماعها، مع أنها مسموعة لغير الإنس والجن، فهذا وجه يمكن حمل معنى الآية عليه، والله أعلى وأعلم.

☜ وقد يعترض معترض فيقول: ولماذا لا يكون الجسد المادي الدنيوي هو نفس جسد الشهداء وهم أحياء عند ربهم؟

والجواب ـ على نحو ما نظن ـ والله أعلى وأعلم ـ: إن الشهداء بنص الآية أحياء، مع أنهم في جميع أحكام الدنيا أموات، وقد تزوجت نساؤهم، وتم توزيع تركاتهم، وغير ذلك من أحكام الدنيا وبنصوص الأحكام الشرعية التي أمر بها الخالق سبحانه، وهذا يؤكد أنها حياة غير الحياة، والفارق الوحيد في منظورنا هو الجسد المادي الترابي، والذي نراه بأعيننا يتحلل ولا يتحرك، فكيف يتحرك الشهيد وينعم ويأكل ويشرب وهو في

١ موسوعة الألباني في العقيدة.

منظورنا جثة هامدة، إنه جمع بين النقيضين في أحكام دنيانا، وقد تعبدنا الله بعدم الجمع بين النقيضين، فكيف يجري علينا ما تعبدنا بعدم الإيمان به؟

إن القول بالجمع بين النقيضين كفيل بأن يعطل كثيرا من قوانين الدنيا، والتي تتعطل فقط عند أهل الشريعة، دون غيرهم من الخلق، لأنه من الحكام المستقرة عقلا وشرعا، أن النقيضين لا يجتمعان، فمن أراد أن يدعي ـــ وقد حدث بالفعل ـــ أن الشهداء يتنعمون بأجسادهم المادية، والتي لا حركة بها ظاهرة مطلقا، يكون قد جمع بين الحركة والسكون في حال واحد لجوهر واحد، وهو ممتنع، مما يجعل القائلين به عرضة للتخلف والجهل، وهو ما يغاير بالكلية ما أمرهم الله به من العلم والتفكر والتدبر، وغير ذلك.

وكما قلنا يمكن فهم المعنى على أوجه أخرى، غير هذا الوجه ـــ الذي يدعونه ـــ والذي لا دليل عليه، إلا قول من قال به فقط، والذي لا يستند إلى نص، ولا نُقل له حكم النص.

ومن هذه الأوجه المحتملة: أن الشهداء كسائر الموتى عندما تفارق النفس الجسد، والذي يتحلل كباقي الموتي، لا يحدث لها ما يحدث لسائر الموتى في القبور، حيث تكون نفوس هؤلاء الموتى في حالة تشبه الرقاد، بينما نفوس الشهداء تكون في حال كحال اليقظة من النشاط والحركة والحيوية، ويأكلون ويشربون، ليس كأكل الدنيا وشربها، بل كأكل الجنة وشربها، فلا تخرج منهم فضلات ولا تبقى بعدهم مخلفات، والله أعلى وأعلم.

ويمكن أن نشبه الفرق بين حياة الشهداء وبين حياة الموتى بحالة النوم على النحو التالي: قوله تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}[1]، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ}[2]، وصف المولى تبارك وتعالى النوم بالموت، ومع هذا فهو ليس موتا كاملا بل موت من وجه دون وجه، فمن جهة أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يمارسون سائر أوجه الحياة التي يمارسها الأحياء يكونون كالأموات.

ومن جهة أنهم يتنفسون ويتحركون فهم أحياء من هذا الوجه، وهكذا يجمع النوم بين وصفين وكذلك يمكن أن يكون حال الشهداء وباقي الموتي:

فقوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}[3]، في هذه الآية أثبت المولى أن الشهداء قد قتلوا، والقتل موت، ومع هذا نهانا جل وعلا أن نقول إنهم قد ماتوا لأنهم أحياء حياة لا نعرفها، ولا نشعر بها، وكوننا لا نشعر بها يدل على أنها ليست كالحياة الدنيا التي نعرفها ونشعر بها، ومن هنا يكون قوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[4]، أحياء يرزقون حياة ورزقا غير الحياة الدنيا ورزقها.

---

١ سورة الزمر: ٤٢.

٢ سورة الأنعام: ٦٠. سورة الأنعام: ٦٠.

٣ سورة البقرة: ١٥٤.

٤ سورة آل عمران: ١٦٩.

وأما اختلافهم عن سائر الموتى الذين علمنا أن لهم حياة بعد الموت غير الحياة الدنيا، ومع هذا لم يصفها المولى تبارك وتعالى بالحياة، كما وصف حياة الشهداء، فيمكن أن نقول إن الفرق بين الحياتين كالفرق بين حياة النيام وحياة غير النيام، فحياة النيام حياة قاصرة، ولهذا كانت شبيهة بالموت، وهكذا حياة الموتى بالنسبة لحياة الشهداء، حياة الموتى حياة قاصرة كحياة النيام، بينما حياة الشهداء حياة غير قاصرة، بل حياة كاملة ولكن لا نشعر بها، والله أعلى وأعلم.

من جانب آخر: ماذا لو أن الشهيد تم حرقه والتمثيل بجثته بعد أن تمكن الأعداء منه، ألن يكون حيا عند الله؟

وإذا كان الجواب: بلى إنه سيكون حيا، ولكن بصورة لا نعلمها.

فسوف نقول: وهذا هو عين ما نريد قوله، فإن الصورة التي لا نعلمها، والتي ليس منها الجسد الذي تم حرقه، هي النفس التي نتحدث عنها، والتي تغاير الروح، ولها خصائص غير خصائص الروح والجسد الترابي، والتي يمكن أن يطلق عليها جسدا أيضا، ويكون الإطلاق صحيحا، لأن الجسد يمثل الهيكل المحدد للبنيان البشري، وليس بالضرورة أن يكون من التراب، ومما يقرب هذا المعنى قول أهل العلم من المسلمين: (وَالْمَلَائِكَةُ أَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ نُورَانِيَّةٌ أُعْطُوا قُدْرَةً عَلَى التَّشَكُّلِ وَعَلَى الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ مُوَاظِبُونَ عَلَى الطَّاعَاتِ مَعْصُومُونَ عَنْ الْمُخَالَفَةِ وَالْفِسْقِ لَا يُوصَفُونَ بِذُكُورَةٍ وَلَا أُنُوثَةٍ وَلَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ)[1].

١ انظر: فتح الباري لابن حجر، حاشية العطار على شرح جلال المحلي لجمع الجوامع، وغيرهما.

فوصف الملائكة بأنها أجسام، وكذلك الجن، يدل على أن الجسد ليس بالضرورة أن يكون من التراب، لأن إطلاق الجسد على الجسم غير ممتنع، والله أعلى وأعلم.

وهذا المعنى يرفع كل إشكال لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ومع هذا فهم في غاية القوة، دون أن يترتب على ذلك أي مستحيل في ذاته، بينما الجن يأكلون ويشربون وهم أيضا مخلوقات ذات أجسام، أو أجساد، **يقول** (**القَاضِي أَبُو يعلى مُحَمَّد بن الْحُسَيْن بن الْفراء الْحَنْبَلِيّ**: (الْجِنّ أجسام مؤلفة وأشخاص ممثلة وَيجوز أَن تكون كثيفة خلافًا للمعتزلة فِي قَوْلهم إِنَّهُم أجسام رقيقَة ولرقتهم لَا نراهم وَالدّلَالَة على ذَلِك علمنَا بِأَن الأجسام يجوز أَن تكون رقيقَة وَيجوز أَن تكون كثيفة وَلَا يُمكن معرفَة أجسام الْجِنّ أَنَّهَا رقيقَة أَو كثيفة إِلَّا بِالْمُشَاهَدَةِ أَو الْخَبَر الْوَارِد عَن الله تَعَالَى أَو عَن رَسُول الله ﷺ وكلا الْأَمريْنِ مَفْقُود فَوَجَبَ أَن لَا يَصح أَنهم أجسام رقيقَة أصلا فَأَما قَوْلهم إِن الْجِنّ إِنَّمَا كَانَت أجساما رقيقَة لأننا لَا نرَاهَا وَإِنَّمَا نرَاهَا لرقتها فَلَا يَصح لأننا قد دللنا على أَن الرقة لَيست بمانعة عَن الرُّؤْيَة فِي بَاب الرُّؤْيَة وَيجوز أَن تكون الْأَجْسَام الكثيفة مَوْجُودَة وَلَا نرَاهَا إِذا لم يخلق الله تَعَالَى فِينَا الْإِدْرَاك"، **ثم ينقل ما يفهم منه معنى الجسد تصريحا بقوله**: "وَقَالَ أبو الْقَاسِم الأنصاري فِي شرح الإرشاد حِكَايَة عَن القَاضِي أبي بكر وَنحن نقُول إِنَّمَا يراهم من رَآهُمْ لِأَن الله تَعَالَى خلق لَهُ رُؤْيَة وَأَن من لم يخلق لَهُ الرُّؤْيَة لَا يراهم لأنهم أجسام مؤلفة وجثث)، وكل هذا الكلام ليس فيه ما يتعارض مع صحيح النقل والعقل، وبالتالي فالقول به لا مطعن فيه، **ثم يقول المصنف بدر الدين ابن تقي الدين، محمد بن عبد الله الشبلي**

رحمه الله: (قَالَ القَاضِي وَهَذَا عندنَا جَائِز غير مُمْتَنع إِن ثَبت بِهِ سمع وَلَا سمع نعلمهُ فِي ذَلِك فَإِن قَالَ قَائِل كَيفَ يُمكن أَن يكون الْجِنّ مخلوقين من نَار مَعَ مَا علم أَن أَجزَاء النَّار وتلهبها يَقْتَضِي افْتِرَاق أجزائها وَعدم ثُبُوت بنية لَهَا قيل قد ثَبت أَن الْحَيَاة لَا تتَعَلَّق بحملة الْجِسْم وَأَن الْحَيّ بهَا محلهَا وَأَنه لَو اسْتَحَالَ خلقهَا فِي الْحَيّ دون اتِّصَاله ببنية لم يحْتَج محلهَا إِلَى كَونه من بنية مَخْصُوصَة على أننا لَو قُلْنَا إِن الْحَيَاة تحْتَاج إِلَى بنية لم يمْتَنع أَن يَبْنِي الله تَعَالَى من جسم النَّار وَهِي على مَا هِيَ عَلَيْهِ من التلهب وَالْحَرَكَة أَجزَاء مؤتلفة غير متباينة فَإِن قيل كَيفَ يجوز كَونهم وَكَون الْمَلَائِكَة رقاق الْأَجْسَام مَعَ عظم قدره وَحَملهمْ الْعَرْش وقلبهم لمدن وسد جِبْرِيل مَا بَين الْخَافِقين بجناحه قيل لَا يمْتَنع أَن يخلق الله تَعَالَى فِي أجسام الْمَلَائِكَة وَالْجِنّ وَإِن كَانُوا من نَار وريح مَا يصير بهَا إِلَى حد يحْتَمل زِيَادَة الْقدر)[1].

وأكتفي بهذا القدر من النقول والتي يفهم منها عدم امتناع إطلاق لفظ الجسد أو البدن على غير الجسم الترابي، وأن عدم وجود الجسد أو البدن الترابي لا يعنى امتناع الأكل والشرب أو امتناع التنعم برزق الله تعالى وفضله، والله أعلى وأعلم.

١ آكام المرجان في أحكام الجان.

نعيم القبر وعذابه

تاهت عقول كثيرة في مسألة نعيم القبر وعذابه، ولعل السبب في ذلك أن هذه العقول أخضعت النصوص التي تتعلق بهذا الأمر لما تطيقه وتفهمه، ولما تعارضا أنكرته، أو تأولت النصوص على وجه يؤدي في النهاية إلى نفس المعنى الذي يفيده الإنكار.

والحقيقة أن مسألة شبكة المعلومات (النت)، والأقمار الصناعية قد ساعدت بصورة هائلة في استيعاب كثير من النصوص الشرعية، وكل ما يتعلق بنعيم القبر وعذابه، من مجهول لا نراه.

وبيان ذلك ما يلي: إذا تخيلنا معنى أن التليفون المحمول يسمح لنا عن طريق الدخول إلى شبكة المعلومات (النت) أن نعايش ما لا حصر له من الأحداث، صوتا وصورة، ومن هذه الأحداث أهوال الحروب والقتل والدمار، ومنها نعيم أهل الترف والسعة والمال، ومن المعلوم أن الهاتف المحمول ما هو إلا أداة يتم عن طريقها الاطلاع على غيب (بالنسبة لمن لم يحضر هذه الأحداث)"[1] لا يجسده أي شيء مادي ملموس"[2]، فالصوت والصورة لم يصنعهما التليفون المحمول، بل هو وسيلة لنقلها فقط لا غير، ولولا هذا التليفون لما أمكننا أن نسمع أو أن نرى من هذه الأحداث شيئا.

وعلى أي وجه يمكن أن نصف به هذه التقنية، فإننا سنصل إلى حقيقة أن كل ما نراه أو نسمعه حق لا ريب فيه، ولكننا لا نستطيع التأثير فيه، مع أنها

١ كما يحدث في الأفلام القديمة وغيرها، على سبيل المثال.

٢ فكل الأحداث التي ينقلها الفيديو تعايشها وكأنها معك دون أن تلمس لها حقيقة مادية.

موجودة يقينا، ويتمثل العجز في التأثير في هذه الأحداث، وأننا لا نستطيع أن نغير منها شيئا، عن طريق المحمول، وبخاصة إذا كانت هذه الأحداث من زمن قد مضى، فنحن عاجزون أن نرفع الألم عمن يتألم، ونراه عن طريق المحمول، وكذلك نحن عاجزون عن العكس، فلا طاقة لنا أن نؤذي الشرير، أو أن نعذبه بصورة ما، فالعجز مطلق بالنسبة لأي وجه من وجوه التأثير.

ومع أن كل ما نراه عن طريق المحمول قد وقع بالفعل، أو يجري حدوثه في مكان ما، وقت المشاهدة، ويمكننا الانتقال من حدث إلى حدث آخر، لا علاقة بينهما مطلقا، مع كل هذا فإن جهاز المحمول باق كما هو، ولم يتغير فيه شيء، مع أن كل هذه الأحداث الهائلة والمضطربة فيما بينها، تحيط بالمحمول من كل جانب، بمعنى أن تحيط بنا وحولنا، ولكن لا يمكننا رؤيتها إلا عن طريق المحمول، فلو أمكننا اختراع جهاز كالمحمول ينقل ما يدور في القبور، لأمكننا تصوير ما يحدث في القبور تماما كما تم تصوير ما ينقله المحمول، ولكن لا حيلة للبشر حتى الآن في معرفة أكثر مما وصلوا إليه.

ونقول: إذا كان هذا التطور التقني قد وصل إليه الإنسان فأمكنه رؤية ما تبثه الأشعة والموجات مما غاب عنه من أحداث، وكان قبل ذلك التطور يعجز عن الإحاطة بتلك الأحداث، فما وجه الغرابة أن يعجز عن سماع ورؤية ما يحدث في القبور من النعيم والعذاب، بسبب عدم امتلاكه للجهاز الذي يمكنه التعامل مع ما يجري في القبر؟

وإذا كان هذا ما وصل إليه البشر، وهو كثير على الرغم من عجزهم، فكيف برب البشر سبحانه، تعالى وتنزه عن الشبيه والمثيل، {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}[1].

والمعنى أن إنكار نعيم القبر وعذابه لمجرد العجز عن إدراكه بالحواس ظاهر البطلان، فهو ليس مستحيلا لذاته، بل كما أمكن أن نشاهد عبر قطعة المحمول أحداث العذاب والسعادة، والتي لا أثر مادي لها إطلاقا في نطاق التليفون، فما وجه الغرابة أن يحدث مثل هذا في القبر دون أن يكون له أي أثر مادي ملموس أو محسوس لدينا؛

وإذا كان الأمر بهذه البساطة التي ينقلها المحمول، فما وجه الصعوبة أن يتحقق نعيم القبر وعذابه ولو في أعماق البحار أو باطن الأرض، إن شيئا من هذا ليس غريبا أو مستحيلا لذاته، ولكن قد لا يمتنع أن يكون الاطلاع على ما يجري في القبور مستحيلا، ليس لذاته، ولكن لأن الله أراد ذلك، فجعل خواص النفس، وما يتعلق بها من الأسرار التي لا يمكن للإنسان أن يحيط بها، أو لا يمكن أن يحيط بها على وجه التمام، والمعنى أنه بعد الاطلاع على ما وصل إليه الإنسان، يصبح تصور ما أخبر عنه الشرع أمرا ميسورا لا وجه لإنكاره، إلا لمكابر.

ومع هذا فلا يدعي أحد أنه استطاع الإحاطة بفهم ما يحدث في القبور على وجه اليقين، من خلال النصوص الشرعية، لأن النص مازال يحمل الكثير مما لم يمكن فهمه"[2]، وقد يكون مقصودا أن لا تحمل النصوص

---

١ سورة فاطر: ٤٤.

٢ وعلى سبيل المثال حقيقة النفس والروح، والجسد.

كل ما يجري في القبور، رحمة بالأحياء من هول ما يعلمون، أو غير ذلك، ومع كل هذا فإن ما أمكن فهمه يؤكد حقيقة نعيم القبر وعذابه، وإن كان لا يستحضرها استحضار الصورة المادية الملموسة.

ومع إثبات هذه الحقيقة تنشأ لدينا معضلة أخرى وهي: مآل الذين ينعمون في القبور يوم الحساب، هل سيحاسبون ومنهم من يدخل النار ولو لفترة ما؟، أم أنهم جميعا سيدخلون الجنة؟ ليكون تنعمهم في القبور إشارة إلى أنهم من أهل الجنة؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو فما فائدة الحساب في هذه الحال؟

والذي نراه ــ والله أعلم ــ أنه يمكن الإجابة عن هذه المعضلة بأن نعيم القبر وعذابه يتفاوت أيضا، كما تتفاوت درجات الجنة، وتتفاوت دركات النار، وقد يكون أيضا في القبور من يشبه أهل الأعراف فلا يتنعمون ولا يعذبون في قبورهم، {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[1].

وبالنظر إلى النصوص الواردة في هذا الشأن، يغلب على الظن أنها لا تنفي هذا المعنى، أي وجود أناس لا يتنعمون ولا يعذبون، ويكون الفصل في درجات أهل الجنة عن طريق الحساب يوم القيامة، وكذلك الحال بالنسبة لدركات أهل النار والعياذ بالله، أما الذين لم يعذبوا ولم يتنعموا في القبر، فإن حسابهم يوم القيامة يكون أمرا مفهوما، والله أعلى وأعلم.

١ سورة الأعراف: الآيتان ٤٦، ٤٧.

ولأن إثبات نعيم القبر بالنسبة لأهل الطاعة لا ينفي عذاب القبر بالنسبة لأهل الضلال، فكذلك وبالقياس يمكن أن يقال أن نعيم القبر وعذابه لا ينفيان وجود من لا يتنعم ولا يعذب في القبور، والله أعلى وأعلم.

وإذا قلنا بصحة هذا فيمكن أن يعتبر كل ما يحدث في القبور بمثابة الاختبار التمهيدي، والذي يمايز فقط بين فريقين، فريق الجنة وفريق السعير، والعياذ بالله.

ولعل النصوص تساعد على القول بأن فريق السعير هم الذين يعذبون في القبور عذابا دائما، أما الذين يعذبون في القبر من أهل الجنة، فقد يكون عذابهم غير دائم وغير مستمر، وقد يكون عذابا هينا مقارنة بعذاب أهل الكفر والضلال، ولو استطردنا في هذا المعنى نستطيع أن نقول إن حساب الآخرة هو الحساب النهائي للانتقال إلى الحياة الأبدية، ولا مانع أن يكون أهل التنعم في القبور هم الذين لا يدخلون النار بعد حساب الآخرة، بينما الذين يدخلون النار لفترة ما ثم يدخلون الجنة هم الذين يعذبون في القبور عذابا هينا، يستوفى من نصيبهم من العذاب يوم القيامة، والله أعلى وأعلم.

والذي نهدف إليه من هذا البيان أنه لا يوجد تعارض بين نعيم القبر وعذابه وبين الحساب يوم القيامة، وما يترتب عليه من جنة أو نار، والله أعلى وأعلم.

هذا من جانب العقل، وأما الذي يدفعنا إلى تأكيد وقوع نعيم القبر وعذابه فإنما هو النصوص الشرعية من القرآن والسنة، والتي تثبت أن كلا من نعيم القبر وعذابه حق لا مرية فيه، فأصبح الإيمان به من كمال تحقيق العبودية لله رب العالمين، ولا معنى للعبودية غير الامتثال لما يأتي به

الشرع، فليست العبودية هي الإذعان والرضوخ لما يسيغه العقل، بل هي الرضوخ والإذعان لما يأتي به الشرع، أدرك العقل حقيقته أم لم يدرك.

ويمكن أن نقول إن النصوص الشرعية التي أثبتت حقيقة نعيم القبر ليست بكثرة النصوص التي أثبتت حقيقة عذاب القبر، ولعل هذا مما جعل أهل الفقه يأصلون لهذا المعنى بقولهم: (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح)[1]، ومن أجل ذلك سنشير إشارة سريعة إلى نعيم القبر، ثم نفصل في الحديث عن عذاب القبر بما يكفي للرد على المنكرين، ولأن إثبات نعيم القبر أو عذابه يدل كل منهما على الآخر دلالة تامة.

١ غاية الوصول في شرح لب الأصول للشيخ زكريا الأنصاري (ص: ١٣١)، والذي قصده: أن الحديث عن نعيم القبر هو من قبيل المصلحة، وبالتالي لا يحتاج إلى كثرة النصوص بل يغني البعض عن البعض الآخر، بينما عذاب القبر مفسدة كبيرة ولهذا فإن الاهتمام بالتحذير منه كبير، عسى أن يكون ذلك رادعًا لمن يستخف بالمعاصي، ووقاية من الوقوع في عذاب القبر، والعياذ بالله.

نعيم القبر

نعيم القبر عبارة ما أسهل أن يمر عليها السامعون فلا يتوقف منهم أحد ليتحقق من معناها، فها هي القبور يمرون عليها ـ ليل نهار ـ دون أن يروا من ذلك شيئا، وبحكم المعايشة، والتأثير البيئي لم يألف الناس أن يكون في القبور حياة ما، إلا ما كان يشاع من أساطير وخرافات، الخيال فيها هو الأصل، وقل أن يوجد منها شيء من الحقيقة، ولأن معايشة الأحداث هي التي تكسب الإنسان ـ على مدى عمره ـ ما يستقر في عقله من حقائق وأباطيل وسائر المدركات، ذهب كثير من أهل الإيمان إلى الظن بأن النصوص الشرعية التي تتحدث عن نعيم القبر وعذابه مجاز عن أن القبر لن يكون مخيفا ولا مرعبا لأهل الطاعة، أما أن تذهب عقولهم إلى أبعد من هذا، فيستحضرون النعيم والعذاب في القبور على وجه الحقيقة لا المجاز، فأمر صعب المنال إلا على الخواص، ولعلهم هم المعنيون بقول رسول الله ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

يقول **الإمام الرازي**: (وهذا غاية درجة العبد في الاشتغال بالعبودية، وهو أن يكون العبد في مقام الشهود، لا في مقام الغيبة)[2]، ومقام الشهود في موطن

١ رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

٢ تفسير الرازي.

الغيبة هو مقام الخواص، الذين أنعم الله عليهم، فأصبحت رؤى البصيرة لديهم كرؤى العين أو أشد رسوخا"[1].

ومع هذا فقوله ﷺ: "كأنك تراه" يستحق أن نتوقف أمامه لما يحمله من غرابة شديدة ــ بحسب ما نفهمه ــ فالرؤية مستحيلة تماما في الدنيا، ورسول الله ﷺ وقد أوتي جوامع الكلم لا يقول هذا المستحيل بالنسبة لعقولنا إلا لمعنى دقيق، وحكمة عظيمة.

ولو حاولنا الوصول إلى شيء من هذا المعنى، أو هذه الحكمة ــ غير ما قاله أهل الشروح ــ فإن غالب الظن أن المقصود هو الاجتهاد في استحضار الغيب وكأنه مشاهد ملموس، ولأن هذا مستحيل في حقه سبحانه فيكون المقصود ــ والله أعلم ــ استحضار وعده ووعيده جل في علاه على أنه أمر مادي مشاهد محسوس، فكأن المقصود أن لا نكتفي بمجرد التصديق بما جاءت به نصوص الشرع، والذي يتحقق مع غياب الرؤية، إلى اليقين الذي لا يوجد إلا بالمعاينة والرؤية والمشاهدة، وهنا يصبح التصديق حقيقة

---

[1] وقوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦]، يقول الإمام القرطبي: (وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) أَيْ عَنْ دَرْكِ الْحَقِّ وَالِاعْتِبَارِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْبَصَرُ النَّاظِرُ جُعِلَ بُلْغَةً وَمَنْفَعَةً، وَالْبَصَرُ النَّافِعُ فِي الْقَلْبِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لِكُلِّ عَيْنٍ أَرْبَعُ أَعْيُنٍ، يَعْنِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَرْبَعُ أَعْيُنٍ: عَيْنَانِ فِي رَأْسِهِ لِدُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ لِآخِرَتِهِ، فَإِنْ عَمِيَتْ عَيْنَا رَأْسِهِ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَا قَلْبِهِ فَلَمْ يَضُرَّهُ عَمَاهُ شَيْئًا، وَإِنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَا رَأْسِهِ وَعَمِيَتْ عَيْنَا قَلْبِهِ فَلَمْ يَنْفَعْهُ نَظَرُهُ شَيْئًا. تفسير القرطبي.

مؤكدة يستقر في القلب والعقل والوجدان، وليس شيئا نظريا لا وجود له في النفس إلا مجرد اسم لا يُعلم مسماه.

وأما قيمة اليقين الناشيء عن المشاهدة، فيرجع إلى أن مفهوم العبودية الحق يقوم على تحمل المشقة، والتي لا تخلو منها عبادة من العبادات، فكلما زاد هذا اليقين خفت المشقة، وأقبل الإنسان على العبادة، في لهفة وإقبال، واستطاع أن يقاوم الشهوات والنزوات في ثبات وإصرار، والتي تزيد مشقتها كثيرا عن مشقة العبادة نفسها، وليس من شك في أن المشقة التي يكابدها أهل الطاعة مطلوبة للشارع جل في علاه، وكأنه سبحانه يأبى أن يُدخل الجنة أحدا إلا من أخلص له العبادة، وتحمل مشقتها عن رضا وتسليم، ولولا مشقة العبادة، ومقاومة الشهوات، لما تمايز أهل الجنة، ولا قامت الحجة على أحد منهم يوم القيامة، ولكن حكمة الله نافذة، ولابد أن يقدم كل مؤمن ثمن درجته في الجنة، ومن أجل ذلك ورد في الحديث الصحيح عَنْ سيدنا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[1].

ولكن رحمة الله وسعت كل شيء، ومن أجل ذلك لم يترك الخالق سبحانه أهل طاعته يواجهون مشاق الطاعة، ومقاومة الشهوات دون معين أو سند، بل وعدهم وبشرهم بما يعينهم على كل مشقة، وبخاصة إذا استقر اليقين

١ صحيح مسلم.

في قلوبهم، فقد حملت كثير من نصوص الشرع من المحفزات ما يجعل أهل الطاعة، والإيمان يقبلون على تحمل مشاق العبادة في سعادة ورضا، وإذا ما لانت خلايا أجسامهم للطاعة والعبادة، نمى اليقين في قلوبهم، كما يترعرع الزرع رويدا رويدا، حتى يتمكن من نفوسهم، فلا يزعزه شيء.

إن نصوص الشرع جميعا إنما أتت تخاطب ما فُطرت النفوس عليه، تأليفا للقلوب، وعونا لأهل الطاعة والإيمان، حيث يضعون نصب أعينهم ثمرة الرضوخ بالعبودية، والإذعان بالطاعة، تلك الثمرة التي لا تعدلها ثمرة قط، وكيف لا وكل ثمرات الدنيا ونعيمها لا قيمة لها مقارنة بنعيم الآخرة وثمارها، وفي حديث الإمام مسلم ـ رحمه الله ــ ما يشير إلى هذا المعنى عَنْ سيدنا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"[1].

ولأن التكليف بالعبودية يمثل الجزء الأكبر والأهم من حياة الإنسان كلها فلم يكن سهلا على أهل الشريعة الامتثال بالطاعة، إلا إذا استقر في

١ صحيح مسلم.

وجدانهم بيقين لا يقبل الشك صدق ما جاءت به هذه النصوص، وكلما فترت طاقتهم على العبادة، والاستمرار في مقاومة الشهوات والأهواء، أعادهم اليقين، وانتشلتهم الرحمة، ليثوبوا مرة أخرى إلى دأبهم من الجهد والمثابرة رغبة وطمعا في رضوان الله تعالى.

إن التفاوت الكبير بين أهل الطاعة، إنما يرجع إلى اليقين، الذي يجعل الغيب كأنه مشاهد ملموس، عند هؤلاء الذين تلقوا نصوص الشرع بقلوبهم، ووجدانهم يستشعرونها وكأنهم يعايشونها حقيقة، تلمسها حواسهم، فارتقت عبادتهم حتى أصبحت بالنسبة لهم راحة وسكينة، وإن كانت عند غيرهم عبئا ومشقة، لا يكادون يستشعرون لها معنى، ولا يستحضرون لها صورة، لأن القدرة على معايشة نصوص الشرع بالحب واليقين، تحتاج إلى مجاهدة، ومثابرة وطلب العون من الله تعالى، وكل هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بقدر التصديق بما جاءت به النصوص.

وسبحان الله العظيم نجد أن ما يتعلق بنصوص القبر والآخرة يتحلى بصعوبتين:

الأولى: عدم وضوح المعنى المراد من النص، وضوحا يرفع اللبس والغموض، بل النصوص تتصف بالكثير من الخفاء، {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ}[1]، (يعني كانوا

١ سورة غافر: الآية ١١.

نطفا فخلقهم فهذه موتة وحياة، وأماتهم عند آجالهم، ثم بعثهم في الآخرة فهذه موتة وحياة أخرى، فهاتان «موتتان»)[1]، **وقال آخرون**: (خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق، قال: فكسبهم العقل وأخذ عليهم الميثاق، قال: فلما أخذ عليهم الميثاق أماتهم، ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، فذلك قول الله: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا)[2]، وهكذا نجد هذا الاختلاف الكبير في المعنى المراد، وغير ذلك من النصوص، كثير.

أما الصعوبة الثانية: فتكمن فيما تتعلق به هذه النصوص من أمور غيبية غير مشاهدة أو محسوسة، مما يجعل تقريبها إلى الأذهان على نحو صحيح ليس ميسورا.

ولعل الحكمة من ذلك، والله أعلم، أن يكون معايشة الناس للموت في كل وقت وحين، دافعا لهم علياستحضار هذه النصوص والتفكر فيها، والبحث عن معناها، لتنشط دائما ملكة التفكر لديهم، فيكونوا أهلا لحمل هذه الرسالة بحق، ويبلغوا الغاية التي أرادها الله لهم من الهيمنة والعلو، والله أعلى وأعلم.

---

١ تفسير مقاتل بن سليمان.

٢ تفسير الطبري، بتصرف محدود.

من جانب آخر: لعل هذه الصعوبة تجعل أهل الإيمان منشغلون دوما بفهم المراد منها، مما يجعل قلوبهم يقظة مستحضرة النهاية التي لابد منها، فيقبلون على الطاعة والعمل إرضاء لله تعالى، دون كلل أو ملل.

وكذلك فإن الأمر الشاق على النفس يصعب عليها التغافل عنه، بينما الأمر السهل اللين اليسير، لا تكاد تلتفت إليه إلا قليلا، ولهذا كانت نصوص الشرع، على وجه الإجمال لا تخلو من صعوبة، وحاجة إلى الاجتهاد والتفكر حتى يتحقق المطلوب منها، ومن ذلك صعوبة ما يتعلق بالموت والآخرة، تنبيها للنفس على الدوام، حتى لا تغفل عن إحدى حقائق الحياة الكبرى، والمتثلة في حقيقة الموت، والله أعلى وأعلم.

ولعل هذا أيضا كان هو السبب في ذكر نعيم القبر، على الوجه الذي يخفف كثيرا من خوف لقاء الموت، وملاقاة المجهول الذي لا مناص منه.

ولهذا ولأن القبر هو أول منازل الآخرة جعله الله جل في علاه روضة من رياض الجنة بالنسبة لأهل طاعته، وكأن الله يبشر أهل طاعته بأن نجاحهم في الامتحان سينالون ثمرته فور انتهائهم منه، أي بمجرد موتهم، ففي الحديث الصحيح عن سيدنا البَرَاءِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}[1] قَالَ:

١ سورة إبراهيم: ٢٧.

"فِي القَبْرِ إِذَا قِيلَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ، وَمَا دِينُكَ، وَمَنْ نَبِيُّكَ"[1]، وفي رواية في سنن أبي داود: وَقَالَ: "وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ: يَا هَذَا، مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ "قَالَ هَنَّادٌ: قَالَ: "وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟" قَالَ: "فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ «زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ» فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا} الْآيَةُ ــ ثُمَّ اتَّفَقَا ــ قَالَ: "فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ" قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا» قَالَ: «وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ»[2].

وياله من نعيم، حيث يتنعم بلباس من الجنة، وروحها وطيبها، وكأنه في واحة فيحا تفوح بكل عطر وريحان، تمتد أمامهمد بصره، وكل هذه المعاني لها نظير حسي لا يكاد يحظى به إلا ملوك الدنيا، ومترفوها، وها هو يحظى بكل هذا وأحسن منه وهو في قبره، لا ينغص عليه منغص، ولا يلهيه شاغل، فطوبى لمن كان هذا حاله.

١ سنن الترمذي، وقال الشيخ الألباني صحيح.

٢ سنن أبي داود، وقال الشيخ الألباني صحيح.

إن فجيعة الموت ومفارقة الأهل والأحبة لتهون تماما، إذا ما انتقل العبد إلى هذا النعيم الذي لا يقارنه نعيم في الدنيا قط، ففي الحديث الصحيح عَنْ سيدنا عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَصَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ يَقُولُ: «اللهُمَّ، اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَاعْفُ عَنْهُ وَعَافِهِ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِمَاءٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَقِهِ فِتْنَةَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ» قَالَ عَوْفٌ: «فَتَمَنَّيْتُ أَنْ لَوْ كُنْتُ أَنَا الْمَيِّتَ، لِدُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ الْمَيِّتِ»[1].

إن هذا الصحابي الجليل ﷺ يبين لنا الفارق بين تلقي نصوص الشرع باليقين والتصديق، وكأن ما يخبر عنه رسول الله ﷺ مشاهد أمامه يعاينه ويراه، وبين تلقي نصوص الشرع على أنها ألفاظ تقال لا روح فيها ولا حياة.

ومن أجل ذلك تحدثنا عن الحقائق الكونية محاولة منا أن نبين أن الخبر الشرعي من قرآن أو سنة ليس حكاية تحكى، أو بلاغة خطاب، ولكنها حقائق يقينية تقربها إلى القلوب والأفهام حقائق الكون وعجائبة التي أثبتها العلم وحار في إعجازها العلماء.

١ صحيح مسلم.

في ظل هذه الحقائق الكونية ندرك عظمة الخالق سبحانه وقدرته، ومدى عجز العقول وضآلتها، وإذا ما استقر هذا الفهم في أذهان العقلاء كانت كل نصوص الغيب وخفايا القبور سهلة التصور ميسورة التصديق، بل ولعلها قليلة يسيرة، إذا ما قورنت بما يخبر عنه الكون المدرك من عظيم خلق الله جل في علاه، أفلا يكون نعيم القبر في ظل هذه الحقائق كزهرة في بستان مليء بالزهور؟

ولعل هذه الحقائق الكونية تقرب لنا أيضا أحدى المعاني الصعبة والتي تتمثل في تصور حقيقة نعيم القبر، وعذابه، والعياذ بالله.

عذاب القبر

عذاب القبر ثابت بالنص القرآني بغير لبس ولا غموض، وجاءت السنة بالتفصيل والبيان، ولهذا فإن الطعن في عذاب القبر طعن في القرآن نفسه، وليس طعنا في السنة فقط.

وسوف نذكر ما يُثبت عذاب القبر من السنة المطهرة، ثم نعلق عليه في ضوء ما قدمناه في مسألة الهاتف المحمول وشبكة المعلومات (النت)، ومن هذه النصوص:

في صحيح الإمام البخاري وغيره عَنْ سيدنا أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الكَافِرُ - أَوِ المُنَافِقُ - فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ"[1].

وفي رواية الإمام مسلم: "قَالَ قَتَادَةُ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا، إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ"[2].

وفي الصحيحين وغيرهما، عن سيدنا عبد الله بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي

---

١ صحيح البخاري.

٢ صحيح مسلم.

كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»، قَالَ فَدَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ ثُمَّ غَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِدًا وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا ثُمَّ قَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»[1].

وفي الصحيحين وغيرهما أيضا، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلاَةِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا، وَفِتْنَةِ المَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ"[2].

وبالنظر في هذه الأحاديث فإننا سنجد التصريح بنعيم القبر وعذابه ووقوعه بالفعل.

وإذا ما استحضرنا مسألة المحمول أمكننا أن نفهم أن هذا أمر بسيط وليس فيه ما يستغرب، فقد رأينا كل ذلك يحدث دون أن نشعر به، ولولا وسائل نقل المعلومات من المحمول والشبكة والأقمار الصناعية لما أمكننا ذلك، وهكذا يصبح عجز الثقلين عن سماع ما يحدث في القبور مفهوما.

كذلك نجزم قطعا أن ما يحدث في القبور مما يتعلق بنعيم القبر وعذابه لا يمكن الاطلاع عليه مهما تقدمت العلوم، لأن النص الشرعي وهو حديث رسول الله ﷺ قد نفى إمكان إطلاع الثقلين عليه، ولولا هذا لقلنا إن العلم قادر على ذلك كما حدث بالنسبة للمحمول، ولكن الشرع نفى ذلك.

---

١ صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما.

٢ صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما.

ولعل ما يجعلني أجزم بذلك، أي عدم إمكان الإطلاع على ما يحدث في القبور حتى ولو بالتقدم في العلوم، أن الجن أيضا لا يمكنهم ذلك، ومعلوم أن خواص الجن مختلفة، وقد يصل الجن إلى ما يعجز عنه الإنسان، ولو مع تقدم العلم، **ومما يشير إلى ذلك**: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}[1]، فهاهم قد وصلوا إلى السماء، ولولا أنهم حيل بينهم وبين السماع بإرسال الشهب لكانوا قد سمعوا ما يجري في السماء، ولعله لا يختلف كثيرا مع ما يجري في القبور، ومع هذا لم يسمع الجن ما يجري في القبور، فكان هذا مرجحا ــ والله أعلى وأعلم ــ أن ما يجري في القبور محجوب عن أهل الدنيا، مهما امتلكوا من وسائل علمية.

ومع هذا يمكننا أن نقول إن ما توصل إليه العلم ومكنه من نقل الأحداث عن طريق الأشعة والموجات قد يكون تصديقا لقوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}"[2].

إن عقل الإنسان الذي استطاع أن يحفظ في الهواء عن طريق موجات شبكة المعلومات (النت) ما يفوق طاقة الجبال على حمله، أليس ذلك آية من آيات الله تعالى التي رآها الإنسان بعينيه ليتأكد أن قضية القبور وما يجري فيها من نعيم القبر وعذابه أيسر كثيرا من تصور كيف حملت قطعة من الحديد لا تزيد مساحتها عن أنملة الأصبع ما لا حصر له من العلوم

١ سورة الجن: الآيتان ٨، ٩.

٢ سورة فصلت: ٥٣.

والأحداث، وسبحان من له الملك والملكوت جل شأنه، وهل يوجد ما هو أكثر دلالة على حقيقة عذاب القبر من ذلك؟

لماذا عذاب القبر:

لما كان القبر منزلة تتوسط الحياة الدنيا والحياة الآخرة، رأى البعض أنه لا معنى للعذاب فيه، واضطرهم ذلك إلى رد الأحاديث أو تأويلها على وجه لا صحة له من الناحية الشرعية، لأن العدول عن ظاهر النص لا يجوز مطلقا إلا لضرورة شرعية، ولا يمكن أن تكون الضرورة هي إلغاء معنى النص بالكلية، لأن هذا يجعل النص وكأنه من قبيل العبث وتنزه الشرع الحنيف عن مثل هذا.

والحق الذي لا مرية فيه أن إنكار عذاب القبر، بعد ما أثبتته الأحاديث النبوية الشريفة، وكذلك ما سنذكره من نص قرآني ينزل ــ والله أعلم ـ منزلة من اتخذ إلهه هواه: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}"[1].

وأما الذين يرفضون عذاب القبر قناعة منهم أن القبور ليست محلا للعذاب فيشبه تماما أن يكون البشر هم الذين يسيرون نظام الكون، فهم يُثبتون وينفون من الأمور بحسب ما تفهمه وتهواه عقولهم، وهذا عند من يدرك معناه ضلال وبهتان عظيم، نبرأ إلى الله منه وممن يقول به.

١ سورة الجاثية: ٢٣.

ولقد بينا في بداية البحث لمحة من الحقائق الكونية التي تؤكد بيقين قاطع أن عقول الخلق جميعا ــ ولو اجتمعت ــ أعجز من أن تدير أو تتحكم في شيء من نواميس الكون، وأن أي خلل في هذه المنظومة يؤدي إلى دمار الكون، والقضاء على كل ما فيه، أفلا يدل هذا على دقيق صنعه، وجليل حكمته سبحانه؟

فما وجه الغرابة أن يكون نعيم القبر وعذابه له حكمة عظيمة، سواء أدركوا هذه الحكمة أم لم يدركوها، وهل غياب الحكمة عنهم يعني أنها ليست موجودة؟

لو كان الأمر يسير على هذا النحو لكانت الحياة الدنيا نفسها من قبيل العبث ــ والعياذ بالله ــ لأننا لن ندرك الحكمة منها على وجه اليقين أبدا، لأنه إذا كانت الجنة لها ساكنوها منذ بدء الخليقة، والنار كذلك فما معنى خلق الحياة الدنيا؟؟؟

وكذلك إذا كانت الهداية إلى طاعة الله تحتاج إلى توفيق الله تعالى، فما معنى الحساب: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}"[1]، {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}"[2]، وكون الله يهدي من يشاء معناه من جهة عقولنا أننا مجبرون إما على الطاعة وإما على الضلال والعياذ بالله، وإذا كان الأمر كذلك فلم خلقت الحياة الدنيا؟؟

١ سورة البقرة: ٢٧٢.

٢ سورة القصص: ٥٦.

وبخاصة أنه قد مرت أزمان على البشر لم يعرفوا فيها رسالة، وبيَّن الخالق سبحانه أنه لا يعذبهم: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}"[1].

ولم لا يكون البشر جميعا سواسية، بمعنى أنه لا يرسل إليهم الرسل، ولا يعذبهم كما فعل بغيرهم، ويكفي علمه بهم، وقد أخبر سبحانه أنه لا يظلم أحدا: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}"[2]، فالهداية من عند الله، وهو سبحانه لا يظلم أحدا.

ولو استرسلنا في هذا المسار لقلنا أيضا: ما الحكمة من وجود النار وخلود من فيها يعذبون فقط؟ وهو أمر لا طاقة ولا مجال للعقل في فهمه، وكذلك لا يمكن إنكاره، فإن النار حق والإيمان بها واجب.

وهكذا لو جرت الأمور على نحو ما يعقله الإنسان لتغير حال الدنيا، بل لعلها لم تكن لتوجد ابتداء، ولكان أداؤه للعبادة قهرا عنه، وليست رغبة واختيارا، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}"[3].

ولم ابتلي الإنس والجن بالتكاليف الشرعية، دون غيرهم، ولم لم يكن الجميع كالملائكة مسخرين للعبادة، لا اختيار لهم ولا إرادة، وبذلك يكون لخلقهم هدف معقول مفهوم؟؟؟

كل هذه تساؤلات تدور في الأذهان، ولا جواب لها عند البشر، بل اختص الله بها نفسه سبحانه حيث قال: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}"[4]، ولو

---

١ سورة الإسراء: ١٥.

٢ سورة الكهف: ٤٩.

٣ سورة يونس: ٩٩.

٤ سورة الأنبياء: ٢٣.

تُرك الناس للسؤال فيما ليس في مقدور عقولهم لضلوا وأضلوا كثيرا، لأن العقل المحدود المتناهي لا يمكن أن يحيط بغير المحدود وغير المتناهي، فكان من رحمة الله تعالى بالناس أن أغلق أمامهم هذا الباب.

وأما هؤلاء الذين يدعون أن نفي عذاب القبر ثابت بالقرآن ويستدلون بقوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ}[1].

"**يقولون**: بأن الموتة الأولى العدم، والإحياء الأول الخلق، ثم الموتة الثانية عند قضاء الأجل، ثم الإحياء الثاني يوم البعث، فيتحقق قوله تعالى: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}، فلا إحياء ثالث في القبر، إذ لو قلنا: بأن هناك إحياء في القبر فسيكون هناك إحياء ثالث، ثم بعده موت، وهذا مخالف للآية"[2].

يقول الإمام الرازي: "احتج قوم بهذه الآية على بطلان عذاب القبر، قالوا لأنه تعالى بين أنه يحييهم مرة في الدنيا وأخرى في الآخرة ولم يذكر حياة القبر ويؤكده قوله: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}"[3] ولم يذكر حياة فيما بين هاتين الحالتين.

قالوا ولا يجوز الاستدلال بقوله تعالى: "قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ" لأنه قول الكفار، ولأن كثيرا من الناس أثبتوا حياة الذر في صلب آدم عليه السلام حين

---

١ سورة غافر: ١١.

٢ شرح كتاب التوحيد لابن خزيمة.

٣ سورة المؤمنون: ١٥، ١٦.

استخرجهم وقال لهم: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}[1] وعلى هذا التقدير حصل حياتان وموتتان من غير حاجة إلى إثبات حياة في القبر".

ثم يجيب عن ذلك بقوله: "فالجواب لم يلزم من عدم الذكر في هذه الآية أن لا تكون حاصلة"، ثم ينبه على لفته دقيقة فيقول: "وأيضا فلقائل أن يقول: إن الله تعالى ذكر حياة القبر في هذه الآية، لأن قوله في يحييكم ليس هو الحياة الدائمة وإلا لما صح أن يقول: ثم إليه ترجعون لأن كلمة ثم تقتضي التراخي، والرجوع إلى الله تعالى حاصل عقب الحياة الدائمة من غير تراخ فلو جعلنا الآية من هذا الوجه دليلا على حياة القبر كان قريبا"[2].

ويوضح **الإمام الماتريدي** المعنى بقوله: "المعنى بصورة وقَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ): إحدى الموتتين هي التي تنقضي بها آجالهم، ثم يحييهم في القبر، ثم يميتهم، ثم يحييهم للبعث يوم القيامة، فهما موتتان وحياتان، وإلى هذا يذهب ابن الراوندي، ويحتج بهذا على عذاب القبر، وهو أشبه وأقرب؛ لأنهم بكونهم في أصلاب آبائهم أمواتا لا يقال: (أَمَتَّنَا) وهم كانوا أمواتا"[3].

ونخرج من ذلك بأن عذاب القبر لا مجال للعقل في إثباته أو إنكاره، وأنه محكوم بالنصوص الشرعية مثل باقي الغيبيات كالجنة والنار وغيرها، والتي لا يتم الإيمان إلا بالإقرار بها.

---

١ سورة الأعراف: ١٧٢.

٢ تفسير الرازي.

٣ تفسير الماتريدي.

الأدلة على عذاب القبر

عجيب أمر هؤلاء الذين نسوا حقيقة أنفسهم، وغفلوا عن كونهم عبيدا مخلوقين، مآلهم إلى التراب، فجعلوا عقولهم حاكمة على الشرع وليست محكومة به، ففرقوا بين القرآن والسنة في الحجية والعمل بكل منهما، وزعموا ــ إفكا وضلالا ــ أنهم يرفعون من شأن القرآن ويعظمونه، عندما يجعلونه المصدر الوحيد للتشريع، مستبعدين السنة لأنها من لفظ البشر، وتجاهلوا أن القرآن والسنة جميعا قد وصلا إلينا بواسطة الرسول ﷺ ولا واسطة أخرى، ولو جاز القول بأن السنة لا يحتج بها على وجه الاستقلال لكان معنى هذا نسبة العصيان والعياذ بالله إلى الرسول ﷺ لأن المعنى يكون أنه أمرنا ونهانا بما لا يحق له، وهذا معناه معصية الخالق والعياذ بالله، وكذلك معناه أن الخالق جل في علاه أخطأ والعياذ بالله في اختيار الرسول ونستغفر الله العظيم من هذا البهتان والضلال، وبعد أو ليس هذا هو قول الشيعة الضالة المضلة أن الوحي قد أخطأ وكان يجب أن ينزل على سيدنا علي رضي الله عنه؟؟؟

وإن قالوا إنهم لا يطعنون في أصل السنة، ولكن يطعنون في صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ لكان الجرم واحدا، لأن هذا الكلام يصل إلى نفس النتيجة، وهي أن الخالق الذي اصطفى رسوله ﷺ قد عجز عن حفظ شرعه، الذي تعبد الناس به، وليس أضل من مثل هذا القول، الذي يُنزل الخالق منزلة المخلوق العاجز الذي لا حول له ولا قوة، ونعوذ بالله من هؤلاء ومما يقولون.

كذلك فإن هؤلاء الذين يرفضون أن تأتي السنة المطهرة بما لم يأت به القرآن كأنما ينزلون أنفسهم منزلة من له الأمر والنهي، فكأنهم ينازعون الخالق فيما يريد سبحانه، ونعوذ بالله من هذا الضلال وهذا البهتان.

والحق الذي نتعبد الله به أن طاعة الرسول ﷺ مطلقة، فيما كان له ذكر في القرآن، وكذلك فيما ليس له ذكر، ولولا ذلك لما كان لكثير من آيات القرآن أي معنى حقيقي، والعياذ بالله، وأكتفي من هذه الآيات بقوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}"[1]

لو حمل النطق هنا على اللفظ القرآني وحده، لكان معناه أن ما عدا هذا اللفظ القرآني مما ينطق به النبي ﷺ يمكن أن يدخله الهوى والعياذ بالله، وهو ينافي الاصطفاء والعصمة فدل هذا على أنه ﷺ ما ينطق عن الهوى مطلقا، لا في لفظ القرآن، ولا في لفظه هو ﷺ وهو الحديث أو السنة.

وكذلك قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}"[2]، ليس للآية معنى حقيقيا يختص بها لو تأولناها على أخذ ما أتى به الرسول موافقا لما جاء به القرآن الكريم فقط، لأن الآية حينئذ لا تضيف معنى جديدا، عن كل الآيات التي أمرت بطاعة الله تعالى، والحمل على التأكيد لا يجوز إلا إذا تعذر لدينا الحمل على التأسيس، فالمعنى الزائد الذي تنفرد به الآية عن باقي الآيات هو الذي يجب المصير إليه، إلا إذا عجزنا عن ذلك، فنقول بالتأويل أو بالتأكيد بدافع العجز والضرورة، وليس

١ سورة النجم: ٣، ٤.

٢ سورة الحشر: ٧.

على سبيل الجزم واليقين، فلعل الحكمة الغائبة تظهر لنا بعد ذلك، ونتبين خطأ التأويل أو التأكيد الذي قلنا به.

بينما الحمل على الظاهر الذي يؤسس ويضيف جديدا هو المعنى الأصلي، الذي يتناسب مع إعجاز القرآن الكريم، ولا يمكن أن نكون قد وقعنا في محذور إذا ما أجرينا المعاني على الوجه المعجز الذي خاطبنا الله به، والمعنى المستفاد أن ما أتانا الرسول ﷺ به هو القرآن والسنة معا، وليس القرآن فقط، فالعمل بالسنة واجب، وطاعة الرسول ﷺ في كل ما أمر ونهى مما ليس في القرآن واجب.

وأكتفي بهذه اللمحة ــ الخاصة بالسنة النبوية المطهرة ــ حتى لا نخرج عن مجال البحث.

النص القرآني ودلالته على عذاب القبر

النصوص القرآنية التي تثبت عذاب القبر ليست كثيرة، ولكنها موجودة، ولابد أن نوقن أن دلالة النص لا تتعلق بالقلة والكثرة ـــ في ذاتها ـــ ولكن الله تعالى تعبدنا بالنصوص حتى ولو لم يثبت الحكم إلا بنص واحد فقط، **ومع هذا فإن القرآن جاء بأكثر من نص تثبت وجود عذاب القبر، ومن هذه النصوص:**

قوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}[1].

يقول **الإمام الرازي**، في معنى الآية: (وَذَكَرُوا فِي تَفْسِيرِ الْمَرَّتَيْنِ وُجُوهًا كَثِيرَةً:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يُرِيدُ الْأَمْرَاضَ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابَ الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَرَضَ الْمُؤْمِنِ يُفِيدُهُ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ، وَمَرَضُ الْكَافِرِ يُفِيدُهُ زِيَادَةُ الْكُفْرِ وَكُفْرَانُ النِّعَمِ.

الْوَجْهُ الثانِي: رَوَى السُّدِّيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ خَطِيبًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: «اخْرُجْ يَا فُلَانُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ اخْرُجْ يَا فُلَانُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ» فَأَخْرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ نَاسًا وَفَضَحَهُمْ فَهَذَا هُوَ الْعَذَابُ الْأَوَّلُ، وَالثَّانِي عَذَابُ الْقَبْرِ.

---

١ سورة التوبة: الآية ١٠١.

وَالْوَجْهُ الثالِثُ: قَالَ مُجَاهِدٌ: فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَبَعْدَ ذَلِكَ بِعَذَابِ الْقَبْرِ.

وَالْوَجْهُ الرَّابِعُ: قَالَ قَتَادَةُ بِالدُّبَيْلَةِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَسَرَّ إِلَى حُذَيْفَةَ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَقَالَ: سِتَّةٌ يَبْتَلِيهِمُ اللهُ بِالدُّبَيْلَةِ سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ يَأْخُذُ أَحَدَهُمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ صَدْرِهِ، وَسِتَّةٌ يَمُوتُونَ موتا.

والوجه الخامس: قال الحسن: يأخذ الزَّكَاةِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ.

وَالْوَجْهُ السَّادِسُ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُوَ مَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْظِ الْإِسْلَامِ وَدُخُولُهُمْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ حَسَنَةٍ، ثُمَّ عَذَابُهُمْ فِي الْقُبُورِ.

وَالْوَجْهُ السَّابِعُ: أَحَدُ الْعَذَابَيْنِ ضَرْبُ الْمَلَائِكَةِ الْوُجُوهَ وَالْأَدْبَارَ. وَالْآخَرُ عِنْدَ الْبَعْثِ، يُوَكَّلُ بِهِمْ عُنُقُ النَّارِ.

ثم يقول: وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ مَرَاتِبُ الْحَيَاةِ ثَلَاثَةٌ: حَيَاةُ الدُّنْيَا، وَحَيَاةُ الْقَبْرِ، وَحَيَاةُ الْقِيَامَةِ، فَقَوْلُهُ: سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ الْمُرَادُ مِنْهُ عَذَابُ الدُّنْيَا بِجَمِيعِ أَقْسَامِهِ، وَعَذَابُ الْقَبْرِ.

وَقَوْلُهُ: ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ الْمُرَادُ مِنْهُ الْعَذَابُ فِي الْحَيَاةِ الثَّالِثَةِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ فِي الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ: ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ يعني النار المخلدة المؤبدة)[1].

وقد أجمعت كل هذه الأقول فيما عدا القول الأول على أن المقصود من الآية هو عذاب القبر، وما قال به الإمام الرازي تعليقا على هذه الأقوال يعتبر تفصيلا غاية في الوضوح.

---

١ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير

ومن أهم النصوص القرآنية التي تثبت عذاب القبر قوله تعالى: {فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}"[1].

وقبل أن أبين وجه الدلالة أسجل ما قاله **الشيخ الشعراوي** رحمه الله في تسجيله الصوتي استدلالا بهذه الآية، والتي نرى أنه بهذا الاستدلال كأنما ينفي عذاب القبر، مع أنه يذكر صراحة وجود عذاب القبر، ولكن يصفه بالعرض فقط، والذي نراه أن كلام الشيخ في هذا الأمر فيه اضطراب، قد يحمل على الشيء ونقيضه، والله أعلى وأعلم.

يقول الشيخ ــ نقلا عن التسجيل الصوتي بتصرف لا يخل بالمعنى ــ: "القبر ليس فيه عذاب لأنه لا عذاب إلا بعد حساب، والحساب يكون في الآخرة، إنما من القبر يعرض عليه عذابه في الآخرة، يعنى عذاب القبر عرض لمنازل الآخرة، واستدل بالآية بقوله: البرزخ عرض والآخرة إدخال، يعنى عرض فقط"، ثم ذكر أن عرض الشيء الحسن على الإنسان يسعده، وعرض الشيء السيء يزعجه فهذا هو عذابه.

والمعنى أن عذاب القبر يصبح كتأثير الشيء نفسيا على الإنسان، وليس له أي جانب مادي ملموس، وهذا الكلام مع قوله بوجود عذاب في القبر يمثل تناقضا كبيرا.

كما أن في هذا التأويل تعطيل تام لكل الأحاديث التي ذكرت عذاب القبر، والذي فيه الضرب والصيحة التي لا يسمعها الثقلان، فكيف يكون عذاب

---

١ سورة غافر: ٤٥، ٤٦.

القبر نفسيا فقط، وليس جسديا، مع أن الأحاديث تثبت أنه عذاب، وأنه يؤثر ويصيح الذي يتعذب من الألم؟

ثم إذا ما أخذنا بالاعتبار أن هذه الأحاديث في أعلى درجات الصحة لتبين لنا هول تعطيلها أو الطعن في صحتها، أو إنكار الأخذ بها.

ومع هذا فإن الآية التي استدل بها الشيخ تؤكد العذاب الحسي ولا تنفيه، وذلك عكس ما يقول به الشيخ رحمه الله، وبيان هذا كما يقول **الإمام ابن كثير**: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} وَهُوَ: الْغَرَقُ فِي الْيَمِّ، ثُمَّ النَّقْلَةُ مِنْهُ إِلَى الْجَحِيمِ، فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} أَيْ: أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي اسْتِدْلَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} أ. ه"[1].

وبهذا التفسير نرفض ما يقول به الشيخ الشعراوي: أن سوء العذاب هو التأثير النفسي للعرض على النار، ونؤكد الرفض من وجهين:

الوجه الأول: أن وصف المولى تبارك وتعالى للعذاب بأنه سيء يدل قطعا على أنه ليس العذاب النفسي الذي يمثله مطلق لفظ عذاب، لأن العذاب النفسي هو العذاب الذي ليس له تأثير جسدي زائد، فالعذاب النفسي هو أقل درجات العذاب، بعد أن انشغل كل إنسان بنفسه، وانقطع تعلقه بكل أمور الدنيا، وعندها يكون العذاب النفسي مصاحبا لكل أنواع العذاب الأخرى الحسية، بينما هي لا تلازمه إذا انفرد، وبهذا يكون وصف

١ تفسير ابن كثير.

السيء إثبات لمعنى زائد عن العذاب النفسي المجرد، وبالتالي فلابد أن يكون هذا العذاب حسيا، وهكذا يثبت هذا اللفظ أن العذاب ليس نفسيا فقط بل عذاب سيء نفسي وحسي، والله أعلى وأعلم.

الوجه الثاني: أن العرض هنا ليس كما قال الشيخ: أنه تعرض عليهم مقاعدهم من النار، بل الصواب أنهم هم الذين يعرضون عليها، وبالتالي ينالهم منها عذاب حسي لا محالة، **يقول الإمام القرطبي**: "قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَمُقَاتِلٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ كُلُّهُمْ قَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ فِي الدُّنْيَا، أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ عَنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ: "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ"، وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ سيدنا ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: أَنَّ أَرْوَاحَ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ فَيُقَالُ هَذِهِ دَارُكُمْ، وَفِي حَدِيثِ صَخْرِ بْنِ جُوَيْرِيَةَ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَى النَّارِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ثُمَّ تَلَا: "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا" وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ عُرِضَ رُوحُهُ عَلَى الْجَنَّةِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ"[1].

ففي هذه الآية يعرضون هم على النار، وليست النار هي التي تعرض عليهم، لأن عرضهم على النار لابد أن يصيبهم منه أذى وعذاب حسي، كما يبينه قوله تعالى: "سوء العذاب".

بينما لو كانت النار هي التي تعرض عليهم لكان المعنى كما قال **الشيخ الشعراوي**، ولأمكن أن تعرض عليهم كصورة دون أن يمسهم من عذابها

١ تفسير القرطبي.

شيء، فلا يبقى إلا العذاب النفسي الذي تحدث عنه الشيخ، ولكن الآية تثبت من طريقين وجود العذاب الحسي:

الأول: وصف العذاب بالسيء **والثاني**: أنهم هم الذين يعرضون عليها وبالتالي ينالهم من حرها عذاب حسي، ففي الحديث عَنْ سيدنا أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»"[1].

📖 الفرق بين العرضين:

كما بينا فإن اللفظ القرآني مقصود لذاته فلا يمكن أن يستوي لفظ يعرضون عليها ـ أي على النار ـ مع لفظ تعرض لهم، ولهذا لابد عند اختلاف اللفظ في الشيء الواحد أن نبحث عن وجه الحكمة التي من أجلها ورد هذا الاختلاف، فكما قلنا لا يوجد مترادفات تامة في القرآن بل كل لفظ في موضعه لا يمكن بحال من الأحوال استبداله بلفظ آخر مرادف له، وكيف لا وهو لفظ الخالق سبحانه الذي أعجز الإنس والجن جميعا.

ومما يدل على أن العرض عليها يغاير أن تعرض هي لهم أو عليهم، أن العرضين وردا في كتاب الله تعالى: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا}"[2]، ففي هذه الآية تعرض النار عليهم أو لهم وليس هم الذين يعرضون عليها، **يقول الإمام ابن كثير**: "يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ، أَيْ: يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا،

---

١ صحيح مسلم.

٢ سورة الكهف: ١٠٠.

لِيَرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ"[1].

فتعجيل الهم والحزن هو العذاب النفسي، ومع شدة هذا العذاب النفسي إلا أنه يهون، كما يهون أيضا سوء العذاب حين كانوا يعرضون هم على النار، وذلك عندما ينغمسوا في النار ويقعوا فيها بعد أن يتم حسابهم، تصديقا لقوله تعالى: "أَشَدَّ الْعَذَابِ".

ونفهم من هذا أن عرض جهنم لهم يمكن أن يكون عذابا نفسيا فقط بينما عرضهم هم عليها لابد أن يصاحبه عذاب حسي، ويبين هذا المعنى **الإمام الطبري** بقوله في تفسير الآية: "وأبرزنا جهنم يوم ينفخ في الصور، فأظهرناها للكافرين بالله، حتى يروها ويعاينوها كهيئة السراب"[2].

فعندما تعرض هي عليهم تكون كهيئة السراب، ويمكن حينئذ ألا ينالهم منها عذاب حسي، بل العذاب النفسي فقط.

ولكن في الآية الخاصة بآل فرعون قال تعالى: "يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا"، وعند عرضهم عليها لابد من أن ينالهم منها عذاب حسي إضافة إلى العذاب النفسي، وهكذا يترجح لدينا عدم صواب الاستدلال الذي قال به **الشيخ الشعراوي** رحمه الله.

وفي حديث الصحيحين وغيرهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ

١ تفسير ابن كثير.

٢ تفسير الطبري.

الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

وهكذا جمعت السنة المشرفة بين الجانبين النفسي والحسي، ففي هذا الحديث يمكن حمله على الجانب النفسي كما في آية سورة الكهف حيث تعرض النار على أهلها كسراب.

بينما في الأحاديث الأخرى تحدثت عن الجانب الحسي كحديث المطرقة والصيحة، وذلك كما في آية آل فرعون حيث يعرضون على النار.

عرض آل فرعون غدوا وعشيا:

ذهب أهل التفسير إلى أن الغدو والعشي يكون بتوقيت أهل الدنيا، والله أعلم بمراده، وإذا كان الأمر كذلك فكما قلنا إن عامل الوقت ينتفي في القبر فيمكن أن يفهم من ذلك أن مفهوم الغدو والعشي هو كناية ومجاز عن تواصل العذاب واستمراره لأن زمن الدنيا لا قيمة له مطلقا بالنسبة لمن في القبور، وهذا هو الأقرب إلى التصور، أي اتصال العذاب عليهم، واستمراره. والله أعلى وأعلم.

وقد يكون المقصود بالغدو والعشي أن العذاب متقطع لكونه موصوف بأنه في الغدو والعشي، بما يعنى أن له وقتين، والآية تحتمل الوجهين، والله أعلى وأعلم.

١ صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما.

أما قول **الشيخ الشعراوي** أنه لا عذاب إلا بعد حساب، بما يفهم منه نفي عذاب القبر الحسي، فيجاب عنه بحديث صحيح الإمام البخاري: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ....."[1] الحديث.

وهذا الحديث قبل أن يستمد صحته من كونه قد أخرجه **الإمام البخاري** وحكم العلماء بصحته، فإنه يستمد صحته من القرآن الكريم وآية آل فرعون والتي أثبتت وجود عذاب القبر الحسي، كما سبق بيانه.

والمعنى أن العذاب هنا قد وقع بعد سؤال الملائكة، وهو في معنى الحساب وإن لم يكن هو، فليس هناك ما يمنع أن يكون الحساب على مرحلتين، ولكل مرحلة ما يليق بها، ففي القبر حساب يتمايز به المؤمنون عن غيرهم، ويوم تقوم الساعة حساب الجزاء الأبدي التام والفصل بين الفريقين فصلا تاما، إما إلى جنة وإما إلى نار والعياذ بالله.

أما إلزام أن لا يكون العذاب إلا بعد حساب يوم القيامة فهو من قبيل التألي على الله والعياذ بالله، لأن مقام العبودية ليس مقام تصريف الأمور، ولكن مقام الإذعان والرضوخ والسمع والطاعة، فإذا ما انقلب الأمر إلى القبول والرفض ــ والعياذ بالله ــ فهذا هو عين الخروج عن دائرة العبودية أعاذنا الله من ذلك.

ولسنا في حاجة إلى بيان أن هذا عذاب دون عذاب يوم القيامة والذي يكون فيه الخلود، وتكون فيه الأجساد، ولهذا ناسبه أن لا يكون إلا بعد

---

١ صحيح البخاري.

حساب خاص به، بينما عذاب القبر ليس واقعا على الأجساد بل على النفوس، وهذا بحسب التقسيم الثلاثي "البدن والنفس والروح"، حيث رجحنا أن الروح غير النفس، والتي بينا أنها تشبه بصورة أو بأخرى الأشعة والموجات التي يتلقاها المحمول فنرى بها الصورة ونسمع بها الصوت، وهذه النفس يمكن أن يكون تأثرها بالعذاب أقل كثيرا من تأثرها بالعذاب حين يرد إليها الجسد، وترد لهذا الجسد الروح فيكون العذاب هائلا والعياذ بالله تعالى، تحقيقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ}"[1].

ففي هذه الآية وآية آل فرعون وصف العذاب بأنه أشد العذاب ألا وهو عذاب يوم القيامة، بينما وصفَ عذاب القبر بأنه سوء العذاب، ولابد من الفرق بين الوصفين، فعلمنا أن هذا يرجع إلى حقيقة العذاب نفسه، كما يمكن أن يرجع أيضا إلى صفة المستقبِل للعذاب، حيث إنه في عذاب البرزخ هو النفس، وفي عذاب الآخرة النفس والجسد والذي تعود إليه الروح، والله أعلى وأعلم.

١ سورة البقرة: ٨٥.

هل عذاب القبر خاص بآل فرعون؟

وصف الخالق سبحانه نفسه في أكثر من موضع بأنه لا يظلم أحدا، وبأنه ليس بظلام للعبيد، ومعنى هذا أن ذكر آل فرعون ليس معناه اختصاصهم بالعذاب دون غيرهم، ولكن لعل الاختصاص هو في وصف العذاب وعرضهم بالغدو والعشي، والله أعلم.

ومن المعلوم أن تخصيص الشيء بالذكر يدل على معنى زائد في المذكور وليس بالضرورة أن يكون لنفي الحكم عما سواه، ولعل وجه الاختصاص أن آل فرعون هم الذين تبجحوا وادعوا الألوهية بهذا اللفظ الصريح: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}"[1].

وفي موضع آخر يبين القرآن الكريم هذا الجرم الفادح الذي وقع فيه آل فرعون: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}"[2].

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد خص آل فرعون بأشد الألفاظ دلالة على الكفر والكبر والعناد، ولهذا خصهم بالذكر وليس لنفي الحكم عن عتاة الكفر الآخرين.

---

١ سورة القصص: ٣٨.

٢ سورة النازعات: ١٧ - ٢٦.

ولعل النص القرآني الذي يدل على عذاب القبر للكافرين عموما هو قوله تعالى حكاية عن أهل الكفر: {قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}[1] والمعنى أنهم بعد النفخة الأولى وهي نفخة الصعقة توقف عنهم عذاب القبر وناموا، أو صعقوا كما صعقت باقي الخلائق، ولما نفخت النفخة الثانية {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}"[2] وردت إليهم الحياة عاد إلى ذاكرتهم ما لاقوه من عذاب في القبر فما كان منهم إلا أن "قَالُوا يَاوَيْلَنَا" وهذا لفظ يدل على الحسرة والخوف والفزع من ملاقاة ما يعرفونه، وهو عذاب القبر، والله أعلى وأعلم.

يبين **الإمام ابن القيم** عموم عذاب القبر للكافرين جميعا، وليس آل فرعون فقط **حيث يقول**: "نعيم البرزخ وعذابه مَذْكُور فِي الْقُرْآن فِي غير مَوضِع فَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}"[3]، وَهَذَا خطاب لَهُم عِنْد الْمَوْت وَقد أخْبرت الْمَلَائِكَة وهم الصادقون أَنهم حِينَئِذٍ يجزون عَذَاب الْهون وَلَو تَأَخّر عَنْهُم ذَلِك إِلَى انْقِضَاء الدُّنْيَا ـــ "أي يوم

١ سورة يس: ٥٢.

٢ سورة يس: ٥١، ٥٢.

٣ سورة الأنعام: ٩٣.

القيامة" ـــ لما صَحَّ أَن يُقَال لَهُم الْيَوْم تُجْزونَ، وفي آية آل فِرْعَوْن ذكر عَذَاب الدَّارَيْنِ ذكرا صَرِيحًا لَا يحْتَمل غَيره"[1].

والأمر الذي لا شك فيه أن السنة النبوية المطهرة قد أكدت عموم عذاب القبر، بما يقطع بأن الاستدلال بالآيات على جهة العموم وليس خصوص آل فرعون هو الصواب.

ومن ذلك: عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَال: " إِذَا أُقْعِدَ المُؤْمِنُ فِي قَبرِهِ؛ أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ محَمَّدَاً رَسُولُ الله، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ}[2] نَزَلَتْ فِي عَذَابِ القَبْرِ "[3]، وفي رواية الإمام مسلم ـــ رحمه الله: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَال: "{يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة}، قَالَ ﷺ: " نَزَلَتْ فِي عَذَابِ القَبر؛ فَيُقَالُ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّ محَمَّدٌ ﷺ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلّ: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة}"[4].

ومن ذلك أيضا: قوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}[5]، عَن أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي مَعْنىَ المَعِيشَةِ الضَّنْك: "عَذَابُ الْقَبر"[6].

---

١ الروح لابن القيم.

٢ سورة إبراهيم: من الآية ٢٧.

٣ صحيح البُخَارِيُّ بِكِتَابِ الجَنَائِزِ بَابِ: مَا جَاءَ فِي عَذَابِ القَبرِ بِرَقْم: (١٣٦٩).

٤ صحيح مُسْلِمٌ بِرَقْم: (٢٨٧١).

٥ سورة طه: من الآية ١٢٤.

٦ حَسَّنَهُ الأُسْتَاذ شُعَيْب الأَرْنَؤُوط في صَحِيحِ الإِمَامِ ابْنِ حِبَّانَ بِرَقْم: (٣١١٩)، وقَالَ الإِمَامُ الذَّهَبِيُّ في التَّلْخِيص: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الإِمَامِ مُسْلِم.

وهكذا تؤكد نصوص القرآن والسنة الصحيحة أن عذاب القبر عام، وليس قاصرا على آل فرعون، والله أعلى وأعلم.

البدن وعذاب القبر

رجحنا كون عذاب القبر يقع على النفس وليس البدن أو الروح، ونظرا لأن هذا الترجيح يبدو وكأنه يخالف ما عليه أهل السنة والجماعة ــ وإن كنت لا أظن ذلك ــ نبين أهم الأقوال التي تبدو مناقضة لهذا القول، ثم نبين كيف يمكن التوفيق بين القولين، والله الموفق إلى سبيل الرشاد.

يقول **الإمام ابن تيمية**: "بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما يكون للروح منفردة عن البدن. وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟

هذا فيه قولان مشهوران: لأهل الحديث والسنة والكلام وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث؛ قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب. وهذا تقوله "الفلاسفة" المنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين"[1].

ويلاحظ أنه حكم بالكفر على من ينكرون معاد الأبدان، وهذا حق لأن النصوص الشرعية أثبتت أن الأبدان تبعث، وتركب على عجب الذنب كما بينا، ومع هذا فهل سيكون نفس البدن أم أنه غيره، ورجحنا أنه ليس نفسه، وأن الذي لا يتغير هو النفس، وليس البدن، وأن أي بدن تلبسه النفس يصير

١ مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٢٨٣).

هو بدنها، لأن عجب الذنب هو الذي يحمل بصمة البدن وذاكرته على الأغلب، والله أعلى وأعلم.

ومما يدل على أن الحكم بالكفر خاص بإنكار المعاد، أنه يقول: "ويقوله كثير من "أهل الكلام" من المعتزلة وغيرهم: الذين يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور، وقول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هي الحياة، **وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وأصحاب أبي الحسن الأشعري كالقاضي أبي بكر وغيرهم**، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وهذا قول باطل"[1].

وهنا نلاحظ أنه يذكر قول **القاضي أبي بكر** وغيره ضمن الأقوال الباطلة، ولست هنا بصدد تصحيح القول أو تخطئته، ولكن فقط أبين أنه لا يوجد اتفاق في المسألة على النحو الذي يذكره، لأننا لو استبعدنا أصحاب **الشيخ أبي الحسن الأشعري** من أن يكونوا من أهل السنة والجماعة، فسوف نقع في خطأ فادح، حيث يقول **الإمام ابن تيمية** في الفتاوى: "ولهذا لما كان **أبو الحسن الأشعري** وأصحابه منتسبين إلى السنة والجماعة: كان منتحلا **للإمام أحمد** ذاكرا أنه مقتد به متبع سبيله، وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة والمؤالفة لكثير من أصحاب **الإمام أحمد** ما هو معروف"[2].

وبالتالي فإن الصواب أن يقال إنه قول الجمهور وليس اتفاقا.

ومن المعلوم أن الذي يحرم مخالفته هو إجماع أهل السنة والجماعة بمعناه الواسع والذي يضم أصحاب **الإمام أبي الحسن الأشعري** بغير جدال.

---

١ مجموع الفتاوى.

٢ مجموع الفتاوى.

بينما قول الجمهور معناه أنه قول الأكثر، وأن الأقل على خلافه، ومع هذا لا يحرم مخالفته، ولهذا نجد في فروع الفقه كثيرا ما يخالف إمام من الأئمة قول الجمهور ولا يعد خلافه مستنكرا، بل قد يكون راجحا في أحيان كثيرة.

والذي نراه أن ما ذهب إليه **الإمام ابن تيمية** هو القول الراجح لديه، والذي يمكن أن يكون قول الجمهور، ولكنه ليس إجماعا، ولا اتفاقا، وبنص كلامه هو نفسه.

ومن جانب آخر: لو أخذنا بالقسمة الثلاثية لأمكن الخروج من هذا الخلاف تماما بل نكاد نقطع أن هذا هو القول الموافق لصحيح الشرع.

ووجه ذلك: أن الشرع لا يخاطبنا بما يستحيل وجوده، ومسألة القبور تخضع لعالمين، عالم الغيب ولا مجال للعقل فيه، وعالم الشهادة وهو ما نراه بأعيننا، وهو يخضع بالكامل لأحكام الدنيا، ولهذا خاطبنا الشرع بأن نكفن الميت وندفنه، ولم يحجبه عن أعيننا بدلا من ذلك، وكان من الممكن أن يختفي الجثمان بمجرد الموت، أو يتجمع الجلد وينكمش ليخفي كل معالمه، أو غير ذلك مما تعجز العقول عن إدراكه، لو كان الأمر يسير على النحو الذي يذهب إليه أصحاب القسمة الثنائية.

ولما كان الماء هو المكون الأكبر لجسم الإنسان فكان من الممكن أن ينضغط جسم الميت عندما يرشح الماء من الجسم، ويتكور كالقرفصاء، أو يصبح كالكرة بحيث لا يمكن تمييز جلوسه من تمدده بالأعين، وغير ذلك مما يمكن أن يوهم بحركة غير مرئية، بوجه ما، ولكن شيئا من هذا لم يحدث.

والمعنى أن الشرع لا يخاطبنا بالمستحيل عقلا، ولهذا فكل ما يعطل عمل العقل، فيما يتعلق بأمور الدنيا، فهو مرفوض، وليس من الشرع في شيء، ولو رجعنا إلى كثير مما نقل في العصور الأولى للإسلام فيما يتعلق بالأمور العلمية لوجدناها مخالفة للقول الصحيح، ولعل من ذلك ما يتعلق بكروية الأرض، حيث فسر أهل التفسير قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}"[1]، ولم يشر أحد من الأوائل إلى كرويتها، وكذلك: نقص نسبة الأوكسيجين عندما يصعد الإنسان إلى السماء، كما في قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}"[2].

يقول الإمام الطبري: (وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه إلى السماء من الصُّعود وعجزه عنه، لأن ذلك ليس في وسعه)[3].

وفي هذا التفسير لا نجد أنه تعرض للحقيقة العلمية التي أشارت إليها الآية، لأن ذلك لم يكن معلوما لديهم، وغير ذلك.

وعلى هذا نرى أن ما ذهب إليه **الإمام ابن تيمية** ومن وافقه إنما ألجأه إليه عدم إدراك مفهوم النفس، على النحو الذي ساعد عليه العلم الحديث، والذي لم يكن ممكنا في العصور السابقة مطلقا.

إن العلم الحديث يثبت عدم فناء النفس، وأستطيع أن أقول إنها لا تفنى ولا تتبدل، بينما الجسد الترابي يصبح ترابها، وهو وإن كان من الناحية

---

١ سورة النازعات: ٣٠.

٢ سورة الأنعام: ١٢٥.

٣ تفسير الطبري.

العلمية لا يفنى إلا أنه يصبح في حكم الفناء، من جهة أنه يفقد شكله وهيكله ويتحول إلى تراب.

والذين ألزموا أن عذاب القبر واقع على البدن، تحدثوا عنه على أن البدن موجود، وفي نفس الوقت يؤكدون أنه قد صار ترابا، فمعنى وجوده بعد أن صار ترابا أن الجسد فقد صورته التي يراها الناس فقط، دون أن يفقد حقيقته، ولا يمكن بأي حال من الأحوال حمل كلامهم على غير هذا الوجه، وإلا كان ضربا من الهزل أو الجنون.

ونخلص من ذلك إلى أن كلام أهل السنة والجماعة معناه أن الجسد موجود ولكن الأحياء فقدوا القدرة على رؤيته"[1].

وهذا القول الذي يقولونه هو عين ما نقول به، غير أننا نصف قولهم بالجسد غير المرئي أنه النفس، وهم يقولون إنه البدن، وكما يقول أهل العلم إن هذا مجرد اصطلاح ولا مشاحة فيه.

ومما يرجح هذا أن العلم قد استطاع أن يصور الجسم في المكان الذي غادره بالفعل قبل التصوير، بمعنى أنه قام بتصوير ما ليس موجودا في أعيننا، ولكنه موجود في الحقيقة، غير أن العلم استطاع ذلك في خلال دقائق معدودة فقط، ولعله مع تقدم العلوم يمكنه ذلك على مدى زمني أكبر.

فلو افترضنا على سبيل المثال أن إنسانا كان موجود في ظل شجرة مثلا ثم ذهب وتركها، فإن العلم تمكن من تصويره وهو يستظل بظل الشجرة هذه بعد أن غادرها بالفعل، ولكن كما قلنا في خلال دقائق معدودة، وإذا أخذنا

١ لأن الغلاف الذي يمثله الجسد قد تحلل وأصبح ترابا.

بالاعتبار هذه الحقيقة مع حقيقة شبكة المعلومات (النت) والأقمار الصناعية لسهل علينا فهم ما نعنيه بلفظ النفس في القسمة الثلاثية.

ومعنى هذا أن كل ما يمكن أن يجري على البدن يمكن تصوره من خلال هذه الحقيقة، حيث نطلق على هذه الصورة على سبيل المثال نفسا، لأنها في هذه الحال لم تكن جسدا، مع أن الصورة واحدة هي هي بالنسبة لهذه النفس والجسد وقت أن كان موجودا.

أما القول بأن الجسد الذي أصبح ترابا هو هو بخصائصة الترابية موجود غير مرئي، فمعناه أننا أثبتنا لكل ميت جسدين جسدا نراه وهو يتحلل، وجسدا آخر لا يتحلل ولا يتغير غير أنه غير مرئي، ولست أدري ما وجه الإصرار على تسميته ووصفه بنفس اسم وخصائص الجسد المتحلل، وهو بالفعل قد أصبح غير مرئي.

وهكذا وعلى أي وجه يحمل كلام **الإمام ابن تيمية** ـــ رحمه الله ـــ نرى أن الخلاف هو خلاف في التسمية، وليس خلافا في المعنى والمغزى، وأننا بالقسمة الثلاثية لا نقع في محذور ولا نخالف ثابتا من الثوابت. والله أعلى وأعلم.

ولمزيد من البيان وجدنا في شروح **العقيدة الطحاوية** ما يوافق كلام **الإمام ابن تيمية** حيث قيل: (وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْقَبْرِ يَكُونُ لِلنَّفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة، تَنْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَة عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَة بِهِ)[1].

١ شرح الطحاوية، ط الأوقاف السعودية.

وهنا يستوقفنا قول الشارح: (تَنْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ)، ونحسب أنه يقصد الروح بقوله النفس، فقد وجدنا غالب أقوالهم يذهبون إلى القسمة الثنائية، ويقصدون بها الروح.

وأما قوله: (مُفْرَدَة عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَة بِهِ) فكأن المقصود هو أن الروح ــ حسب لفظهم ــ يمكن أن تعذب مفردة عن البدن، فهل عند انفرادها بالعذاب عن البدن، يعذب البدن بمفرده أيضا أم لا، إن ظاهر الكلام يوحي بأن البدن عند عدم اتصال الروح به لا يتأثر بشيء، ولعلهم لو صح هذا الفهم يقرون بما نقوله مباشرة، وليس بطريق غير مباشر، بمعنى أن الذي يعذب هو النفس.

وأثناء بحثي في هذه المسألة سمعت أحد العلماء المعاصرين **"الشيخ بسام الجرار"** يقول ما معناه: إن الجسد البشري إذا تم تخديره يفقد الشعور بأي ألم تماما، والسبب هو توقف الصلة بين الجسد وبين الدماغ "مراكز التنبيه بالمخ".

وقد أعجبني هذا القول والذي يفهم منه أن بدن الإنسان ــ بعيدا عن إشارات العقل ــ لا يوجد به أي تأثر أو إحساس، ولو كان البدن يتأثر بذاته لما منع التخدير الإحساس بالألم.

وهكذا حتى في حياتنا الدنيا نستطيع أن نستدل على أن الجسد ما هو إلا قالب لا قيمة له إن فارقته الروح.

ثم يقول صاحب شرح الطحاوية: (وَاعْلَمْ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ نَالَه نَصِيبُه مِنْهُ، قُبِرَ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ،

أَكَلَتْه السِّبَاعُ أَوِ احْتَرَقَ حَتَّى صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ صُلِبَ أَوْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ، وَصَلَ إِلَى رُوحِه وَبَدَنِه مِنَ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إِلَى الْمَقْبُورِ)[1].

وهذا الكلام محل اتفاق فيما عدا مسألة البدن والروح، والتي يظهر فيها الخلاف بسبب القسمة الثنائية، البدن والروح، ويمكن أن يرفع الخلاف لو أخذنا بالقسمة الثلاثية، والتي يمكن أن يطلق فيها على النفس أنها البدن، وقد سبق بيان أن هذا لا يوجد ما يمنعه.

ولعل مما يساعد أكثر على ما نقول القول التالي للشارح: (وَمَا وَرَدَ مِنْ إِجْلَاسِه وَاخْتِلَافِ أَضْلَاعِه وَنَحْوِ ذَلِكَ - فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُه مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، فَلَا يُحَمَّلُ كَلَامُه مَا لَا يَحْتَمِلُه، وَلَا يُقَصَّرُ به عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَه مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عَنْهُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ - مَا لَا يَعْلَمُه إِلَّا اللهُ).

فلفظ إجلاسه واختلاف أضلاعه يدل على حركة مغايرة لتمدد الجسم تماما، فهل هذه الحركة مرئية أم غير مرئية، إن القول بأنها مرئية مرفوض لأن الجسد أمامنا ممدد على الأرض، والقول بأنها غير مرئية معناه وجود شيء آخر لنفس الميت غير مرئي، وهذا هو ما نطلق عليه النفس، وهم يطلقون عليه البدن، ونرى أن إطلاقنا هو الأولى بالصواب منهم، والله أعلى وأعلم.

ثم يستطرد الشارح ويقول: (فَالْحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَة: دَارُ الدُّنْيَا، وَدَارُ الْبَرْزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخُصُّهَا، وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَبْدَانِ، وَالْأَرْوَاحُ تَبَعا

١ المرجع السابق

لَهَا، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ عَلَى الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانُ تَبَعا لَهَا، فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ، صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا".

ولستُ أدري أي معنى لقوله: (وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ عَلَى الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانُ تَبَعا لَهَا) إلا أن يكون هو نفس المعنى الذي نقوله، وإلا فلا معنى لقوله بعد ذلك: (فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ، صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا)[1].

والذي أقصده أن الإصرار على القسمة الثنائية جعل كلامهم متشابها غير محدد المعنى، يصعب التفريق بين معنى ومعنا آخر، بينما القسمة الثلاثية ترفع كل إشكال.

ونتابع مع الشارح قوله: (وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ التي فِي الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ، لَيْسَت مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى يَحْمِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَالْحِجَارَة التي فَوْقَه وَتَحْتَه حتى تكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحِسُّوا بِهَا، بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إِلَى جَنْبِ صَاحِبِه، وَهَذَا فِي حُفْرَة مِنَ النَّارِ، وَهَذَا فِي رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّة، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إِلَى جَارِه شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِه، وَلَا مِنْ هَذَا إِلَى جَارِه شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِه، وَقُدْرَة اللهِ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ مُولَعَة بِالتَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ عِلْمًا)[2].

---

١ شرح الطحاوية، ط الأوقاف السعودية.

٢ المرجع السابق.

ولست أدري كيف نترك العلم الذي أثبت لنا يقينا وجود النار والثلج في بقعة واحدة وهو ما تنقله شبكة المعلومات (النت) على سبيل المثال لنلزم أهل العقيدة بأن تكون النار والثلج معا حسيا ولكن لا نراهما، ووجه ذلك أن القبر فيه الموتى جميعا وهم يلزمون أن عذابهم حسي بدني بحسب القسمة الثنائية، فكيف يعقل هذا، مع أن القسمة الثلاثية تجيب عن هذا إجابة شافية وافية، والله أعلى وأعلم.

والذي نراه أن الإصرار على القسمة الثنائية يؤدي إلى السقوط في غيابات التخلف والتنكر للعلم، والذي يساعد على مزيد من التأخر والجهل في بلاد المسلمين، وهو ما لا يرضاه الشرع، الذي أخبر عن هذا العلم الذي وصل إليه غيرنا، حيث يقول: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}"[1].

بقي في الختام أن نشير إلى قول الإمام ابن حزم الذي استنكره شارح العقيدة الطحاوية: (وَلَيْسَ السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلرُّوحِ وَحْدَهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ، وَأَفْسَدُ مِنْهُ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لِلْبَدَنِ بِلَا رُوحٍ! وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَة تَرُدُّ الْقَوْلَيْنِ)[2].

والذي ألمحه في قول **الإمام ابن حزم** أنه يوافق على أن عذاب القبر خاص بالنفس وليس البدن الترابي، ولكنه نظرا للقسمة الثنائية أطلق على النفس لفظ الروح، ولهذا لمزه شارح الطحاوية بالفساد، يقول **الإمام ابن حزم**: (فتْنَة الْقَبْر وعذابه وَالْمَسْأَلَة إِنَّمَا هِيَ للروح فَقَط بعد فِرَاقه للجسد إِثْر ذَلِك

١ سورة فصلت: ٥٣.

٢ شرح الطحاوية، ط الأوقاف السعودية.

قبر أَو لم يقبر، وَإِنَّمَا قيل عَذَاب الْقَبْر فأضيف إِلَى الْقَبْر لِأَن الْمَعْهُود فِي أَكثر الْمَوْتَى أَنهم يقبرون وَقد علمنَا أَن فيهم أكيل السَّبع والغريق تَأْكُله دَوَاب الْبَحْر والمحرق والمصلوب وَالْمُعَلّق فَلَو كَانَ على مَا يقدر من يظنّ أَنه لا عذاب إِلَّا فِي الْقَبْر الْمَعْهُود لما كَانَ هَؤُلَاءِ فتْنَة وَلَا عَذَاب قبر وَلَا مَسْأَلَة ونعوذ بِاللَّهِ من هَذَا بل كل ميت فَلَا بُد من فتْنَة وسؤال وَبعد ذَلِك سرُور أَو نكد إِلَى يَوْم الْقِيَامَة فَيُوَفَّوْنَ حِينَئِذٍ أُجُورهم وينقلبون إِلَى الْجنَّة أَو النَّار)[1].

والذي يؤكد عليه هنا هو قوله: "فتْنَة الْقَبْر وعذابه وَالْمَسْأَلَة إِنَّمَا هِيَ للروح فَقَط بعد فِرَاقه للجسد إِثْر ذَلِك"، ولو وضعنا لفظ النفس مكان لفظ الروح لاستقام الكلام تماما، ولكن الذي نهدف إليه من هذا العرض بيان أن المسألة ليست اتفاقية كما يقول **الإمام ابن تيمية** وغيره، بل هي اجتهادية، والدليل على ذلك هو قول **الإمام ابن حزم**، ولو استبعدناه من أن يكون من أهل السنة والجماعة، فلن يستقيم قول بهذا الخصوص أبدا.

ونتابع قول الإمام ابن حزم: (وَأَيْضًا فَإِن جَسَد كل إِنْسَان فَلَا بُد من الْعود إِلَى التُّرَاب يَوْمًا مَا كَمَا قَالَ الله تَعَالَى {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفيهَا نعيدكم وَمِنْهَا نخرجكم تَارَة أُخْرَى} فَكل من ذكرنَا من مصلوب أَو مُعَلّق أَو محرق أَو أكيل سبع أَو دَابَّة فَإِنَّهُ يعود رَمَادا أَو رجيعا أَو يتقطع فَيَعُود إِلَى الأَرْض وَلَا بُد وكل مَكَان اسْتَقَرَّتْ فِيهِ النَّفس أثر خُرُوجهَا من الْجَسَد فَهُوَ قبر لَهَا إِلَى يَوْم اليقيامة)[2].

---

١ الفصل في الملل والأهواء والنحل.

٢ المرجع السابق.

وهذا الكلام يتفق تماما مع ما قلناه ولو سار على هذا المنوال بقوله: "اسْتَقَرَّتْ فِيهِ النَّفس" لكان موافقا لما رجحناه تماما.

ويؤكد هذا قوله: (وَأخْبر ﷺ يَوْم بدر إِذْ خَاطب الْقَتْلَى وَأخْبر أَنهم وجدوا مَا توعدهم بِهِ حَقًا قبل أَن يكون لَهُم قُبُور فَقَالَ الْمُسلمُونَ يَا رَسُول الله أتخاطب قوما قد جيفوا فَقَالَ ﷺ مَا أَنْتُم بأسمع لما أَقُول مِنْهُم فَلم يُنكر ﷺ على الْمُسلمين قَوْلهم أَنهم قد جيفوا وأعلمهم أَنهم سامعون فصح أَن ذَلِك لأرواحهم فَقَط بِلَا شكّ وَأما الْجَسَد فَلَا حس لَهُ)[1].

وهكذا يتضح كون المسألة اجتهادية وليست منصوصا عليها بأي نص شرعي، ومن هنا يصبح المصير إلى ما يوافق العلم والعقل الصحيح ضروريا، والله أعلى وأعلم.

كما يقول أيضا: (وَلم يَأْتِ قطّ عَن رَسُول الله ﷺ فِي خبر يَصح أَن أَرْوَاح الْمَوْتَى ترد إِلَى أَجْسَادهم عِنْد الْمَسْأَلَة وَلَو صَحَّ ذَلِك عَنهُ ﷺ لقلنا بِهِ فَإِذْ لَا يَصح فَلَا يحل لأحد أَن يَقُوله)[2].

والذي نعنى به في قوله هذا أنه لا يوجد نص شرعي في هذه المسألة وأنه يقول قولا يخالف الجمهور أو ما أطلق عليه تسامحا وليس حقيقة: (اتفاق أهل السنة والجماعة).

١ نفس المرجع السابق.

٢ نفس المرجع.

والخلاصة أن ما ذهبنا إليه لا يتعارض مع ثابت من ثوابت الشرع مطلقا وذلك من جهتين:

الأولى: أن إمكان التوفيق بين ما رجحناه وبين ما قاله الإمام ابن تيمية سهل وإن اختلف الاصطلاح.

الوجه الثاني: إنه لو فرض أن التوفيق بين القولين غير مقبول، فيكون ما ذهبنا إليه موافق لقول بعض أهل السنة والجماعة الذين خالفوا الجمهور، أو ما أطلق عليه "اتفاق أهل السنة والجماعة" والله أعلى وأعلم.

ملحوظة:

أشرنا فيما سبق إلأى كلام **الحكيم الترمذي** الذي يقول بالقسمة الثلاثية بصورة موافقة لما نقول: وننقل هنا كلامه بتمامه:

يقول الحكيم الترمذي ــ رحمه الله تعالى: (فالنفث من الرّوح والنفخ من النَّفس

وعلامة ذَلِك أَن الرّوح بَارِد وَالنَّفس حَار وَإِذا قَالَ بف خرجت الرّيح بَارِدَة فَذَاك من برد الرّوح وَإِذا قَالَ هاه خرجت الرّيح حارة فَتلك من النَّفس فَالْأولى نفثة وَهَذِه الثَّانِيَة نفخة وَإِنَّمَا صَار هَكَذَا لِأَن الرّوح مَسْكَنهَا فِي الرَّأْس ثمَّ هِيَ منفث فِي جَمِيع الْجَسَد وَالنَّفس مَسْكَنهَا فِي الْبَطن ثمَّ هِيَ منفشة فِي جَمِيع الْجَسَد وَفِي كل وَاحِدَة مِنْهُمَا حَيَاة بهَا يسْتَعْمل الْجَسَد بالحركات فالروح سماوي وَالنَّفس أرضية وَالروح عَادَتهَا الطَّاعَة وَالنَّفس عَادَتهَا الشَّهَوَات فَإِذا ضم شَفَتَيْه اعتصرت الرّوح فِي مَسْكَنهَا فَإِذا قصد لإرسالها خرجت على شَفَتَيْه مَعَ الْبرد فَذَاك النفث وَإِذا فتح فَاه فاعتصرت النَّفس فَإِذا أرْسلت خرجت ريح حارة وَإِنَّمَا جَاءَ الْخَبَر بالنفث لِأَن الرّوح أسْرع نهوضا إِلَى نور تِلْكَ الْكَلِمَات وأوفر حظا من النَّفس وَالنَّفس ثَقِيلَة

بطيئة عاجزة فَأدى الرّوح إِلَى الْكَفَّيْنِ بذلك النفث ريحًا قد باشرت أنوار الصَّدْر الَّتِي أنارتها تِلْكَ الْكَلِمَات وأشعلتها بِمَا جَاءَ من الْمَزِيد فَإِن فِي كل كلمة مِنْهَا نورا وَفِي كل حرف من تِلْكَ الْكَلِمَة نورا فَإِذا صَارَت الرّيح إِلَى الْكَفَّيْنِ بالنفث مسح بهما وَجهه وَمَا أقبل من جسده ثمَّ بعد ذَلِك حَيْثُ مَا بلغ من جسده لِأَن الْحق للْوَجْه لِأَن الصُّورَة فِيهِ ثمَّ الْحق من بعد ذَلِك لما أقبل من الْجَسَد لِأَن قبالة الْمُؤمن حَيْثُ مَا كَانَ فَهُوَ لقبالة الله وَكَذَلِكَ قلبه فِي الْبَاطِن فَالْحق لَهُ فِي النفث أَن يبْدَأ بِالْوَجْهِ ثمَّ بِمَا أقبل من جسده وتفاوت النغثات من أَهلهَا على قدر نور قُلُوبهم وعلمهم بِتِلْكَ الْكَلِمَات فَإِذا فعل ذَلِك بجسده عِنْد إيوائه إِلَى فرَاشه كَانَ كمن اغْتسل بِأَطْهَرَ مَاء وأطيبه)[1].

وبما قلناه يكون العلم قد نجح في كشف كثير من مجهول القبور، ولعل هذا المسار يكشف يوما بعد يوم ما يقرب هذا المجهول أكثر.

والله المستعان.

١ نوادر الأصول في أحاديث الرسول لأبي عبد الله، الحكيم الترمذي (المتوفى: نحو ٣٢٠هـ).

فهـــرس الموت ولقاء المجهول

الموضوع	رقم الصفحة
شكر وتقدير	٧
مقدمة	١٠
التمهيد	١٤
عالم المجهول بين التصديق والإنكار	٢٤
بين التهكم والعجب	٢٤
الموت وخصائص المادة	٣٩
لماذا يقبر الميت	٤٣
حكمة الدفن في القبور	٤٤
بدائل القبر عند البشر	٤٦
ماذا لو تحلل بنيان المقبرة؟	٥٠
الموت وفقه الحياة	٥٣
الأخذ بالأسباب وكشف المجهول	٦٢
اللفظ القرآني ودلالته على المجهول	٧٠

حقائق كونية	٨١
المادة والروح	٨٧
الجانب الغيبي من صفات المادة.....	٩٥
مفهوم الحياة.....	١٠٤
مفهوم الموت	١١٣
الموت والوفاة	١١٤
الموت والهلاك.....	١١٧
الموت والفناء.....	١٢٠
الموت والعدم	١٢١
عالم القبور.....	١٢٤
القبر وعامل الوقت والزمن	١٢٩
القبر والجسد.....	١٣٣
القبر والنفس والروح.....	١٤٠
عجب الذنب.....	١٥٢
نعيم القبر وعذابه	١٦٣
نعيم القبر	١٦٩
عذاب القبر.....	١٧٩
لماذا عذاب القبر.....	١٨٢

الأدلة على عذاب القبر	١٨٧
النص القرآني ودلالته على عذاب القبر.....	١٩٠
الفرق بين العرضين.....	١٩٥
عرض آل فرعون غدوا وعشيا.....	١٩٧
هل عذاب القبر خاص بآل فرعون؟.....	٢٠٠
البدن وعذاب القبر.....	٢٠٤

تم بحمد اللّه

تم بحمد اللّه